الى الأديب الكبير والصديق العزيز
الاستاذ الكبير أديب
مع المودة الصادقة والإعجاب
قدري فلحص
١٨/ ١٠/ ١٩٤٥

حرب الشعوب

دار الاحد - بيروت

قدري قلعجي

89274
Q614hA

حرب الشعوب

Cat. Mar. 15.54

منشورات مجلة الطريق

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٤٥

لقد كان الأدب ، منذ حلت الكلمة المكتوبة محل الكلمة المقولة ، رسالة نبي وشرعة حكيم ، ورغبة ملتهبة في تحطيم عروش الاستبداد. فكيف يستكين الاديب اليوم للامتهان ، ويستنيم للطغيان ، ويكتم شجو قلبه أمام جراح المجتمع الانساني ؟ كيف يرى جراح الحب والهجران ولا يرى جراح الظلم والحرمان ؟ ولم لا يلمس هذا الجراح بريشته « السحرية » فتبرأ ، وهو وحده الذي يملك فضح الاباطيل ويدرك ان بين ما تعانيه البشرية وما تطمح اليه ، خطوات لاتعيابها قدرتها ، ولا تعجز قادتها ، متى عُرفت حقيقة الداء .

ان الأديب الحق لا يستطيع ان يكون حالماً من اولئك الحالمين ، الذين يعيشون في عزلة

فكرية مخجلة، ينظرون من «عليائها» بازدراء الى الامة التي وضعت فيهم ثقتها وجعلتهم منها في مكان القيادة ، ويتهربون ، في فترة النضال الاكبر التي نعيش فيها، من واجب الدفاع عن الثقافة المهددة والحرية المثخنة بالجراح . الأديب الحق رائد من رواد الفكر ، وقائد من قواد النهضة ، ورسول من رسل الانسانية ، وليس مخلوقاً غريباً ، متقلب الاهواء ، مريض القلب ، مغلف الوجدان، يعيش نجي الشكوك والاوهام، مصماً اذنيه عن نداء المظلوم مغلقاً عينيه عن مدية الظالم .

ان الأديب الحق لا يعيش على هامش التاريخ بل يصنع التاريخ : انه يفهم قوانين حركته فيفيد منها ، ويعرف اتجاه التطور فيسير في طليعته ، وبذلك يكون أدبه أدباً قائداً هادياً ، وهذا ما نريده للادب العربي .

٣ كانون الاول سنة ١٩٤١

انطوان الحاج

حيث يسير النازي يسير الموت ، في يده منجل حاصد ، وعلى شفتيه ابتسامة نهم ترقص استبشاراً بالموسم الخصب . فكأنه ريح السموم تجتاح المدن العامرة والجنائن العاطرة فتحيلها الى مسارب ضلال ومدارج ذئاب .

دخل باريس وانغام الحرية في سمائها شرارات من الشمس وقيدها ، فاغتصب البسمات من الشفاه ونفثها نواحاً وجراحاً وتنهدات .

وفي مدينة النور التي أطبق عليها الهول كحجر القبر ، كان يعيش عربي من لبنان ، عربي مرتفع الجبين في كبرياء الصبح الطالع . فضاق بالظلم ذرعاً وضاق الظلم به .. وفي احدى عشيات الخريف بطش الطاغية بالغريب الاعزل ، والشمس تنحدر الى مستقرها فتصبغ العالم بما يشبه الدم ، والطبيعة خاشعة كأنها قد سكنت كلها لسكون ذلك القلب الكبير .

دم اريق كما يراق قدح من ماء ! ثم هتف الجنود جملة واحدة لطالما طويت بها جرائم : هايل هتلر !

جملة فظة كجمرة تسمل بها عينا طفل بريء ، وقحة كبغي في الستين .

جملة روعت الطيور الآمنة ، كطلقة نارية ، فأخذت ترود حائرة حول الشهيد .

والشهيد مسجى في العراء ، تهب على جبينه نسائم مضمخة بطيب ماضيه ، وأصابع الليل تنسج له كفناً أسود .

وفي الفجر العبوس ، أطلت على الارض الخراب غربان تنعب جوعاً ، فلما بصرت بالشهيد جعلت تنوح كالحمام .

وأقبلت ضبع تسعى ، فطافت حول الدم الزكي المطلول ، ثم ولت بطيئة الخطو ، منكسة الرأس ، وفي عينها دمعة حنان .

والدم الزكي المطلول يسيل ويجري حتى يقتحم على الطاغية عزلته ، فيهتف حانقاً : دم قذر .. دم سامي بغيض !

ولكن الدم يتدفق من كل جانب . أنهار من الدماء تفيض من الشرق والغرب ، وتفيض من الشمال والجنوب . دماء غامرة تحدق بالطاغية من كل صوب ، فيصرخ مذعوراً :

« أقضي عليّ ان اموت ، كما عشت ، في بحر من الدم ؟ »

فتنعب بومة هائمة حطت على جثة آخر النازيين ، ويدوي صدى نعيبها في الآفاق ، كضحكة ساخرة جذلى .

ويشهد الكون دنيا حرة جديدة تنبثق من بين الدماء والانقاض .

٢٣ كانون الاول سنة ١٩٤١

غابرييل بيري

كان من واجب الوفاء لغابرييل بيري ان يستوقفنا نعيه هنيهة من الزمان نودع فيها رجلاً احب العرب مخلصاً ، ودافع عنهم بلسانه وقلبه ، يوم تنكر لهم الناس ، وانقطعت بهم السبل ، وفات مطلبهم او كاد .

كان من واجب الوفاء على العرب ان يحيوا في غابرييل بيري الرجولة الحقة ، والانسانية الصادقة ، والوطنية المثلى التي تعلم صاحبها ان حق امته في الحياة لا يصح ان يقضي على حق غيرها من الامم ، وان الشعب الحر لا يستعبد شعباً اخر . ولعل عرفان الجميل يملي على من عرفه من رجال السياسة في سورية ولبنان ، فصلا أو فصولا عن هذا الصديق الراحل الذي امتاز بالرجولة والوطنية والانسانية جميعاً ، فكان من المصلحين الذين نهجوا في الاصلاح نهجاً سوياً وشيدوا مبادئهم على امتن اساس . فأن أيسر ما يجب لغابرييل بيري عند هؤلاء ان يعترفوا له

بالجميل .. ان يعترفوا بنضاله الدائب من اجل امانينا الوطنية في مرحلة خطيرة من تاريخنا الحديث .

ولد بيري في طولون سنة ١٩٠٢ وشغف في حداثة سنه بالمبادىء الانسانية ، فانتظم في صفوف العاملين من اجل السلام والحق والحرية ، وجاهد في سبيلها جهاد الابطال الميامين ، لا يثنيه عن هدفه هول من الاهوال . ولقد سجن مرة ومرة ومرة ، فكأنه خلق ثلاث مرات خلقاً جديداً ليدافع عن مثله العليا بايمان اقوى ، وعزيمة امضى ، وفكرة باذخة تأبى ان تذل .

وكانت فرنسة تتمخض بعد الحرب الماضية بنهضة شعبية قوية بدت تباشيرها في انتخاب بيري للنيابة سنة ١٩٣٢ مع رهط من اخوانه ، وفي تجديد انتخابه سنة ١٩٣٧ وتعيينه نائباً للرئاسة في لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي . وفي هذه الحقبة من حياة بيري عرفناه نحن السوريين واللبنانيين ، بل عرفه العرب في جميع اقطارهم : فرنسياً عريقاً ، حر الضمير ، يدافع عن حقوق السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والمراكشيين والتونسيين وجميع الشعوب الضعيفة كما يدافع عن حقوق الجماهير التي يمثلها . فكأنه ضرب لنا بسيرته مثلاً ، واقام برهاناً لا يدحض ، على ان الديموقراطية تظل ، مهما اخطأت ، افضل وانبل من الدكتاتورية الفاشستية الطاغية ، لانها تنجب امثال بيري ، ولانها تسمح لمثل هذا الرجل الحر بان ينتقد مواضع الخطأ في سياسة حكومته ، ثم يذكرها بمبادىء الثورة الفرنسية التي اعلنت حريات الناس وحقوقهم وبان هذا التراث يفرض

عليها واجبات معينة تجاه الشعوب الموضوعة تحت وصايتها ... يفرض عليها ان تبث حب الحرية في الشعوب المستعبدة لا ان تقاوم هذه النزعة الاصيلة فيها .

استغرقت قضايا شعوب المستعمرات والبلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي جانباً كبيراً من نشاط بيري . وكانت المقالات التي يكتبها في هذا الموضوع والخطب التي يخطبها ، تدل على اطلاع واسع واحاطة دقيقة بشؤون المستعمرات ولا سيما بالقضية العربية ، فكان لصوته وصوت اخوانه في المجلس النيابي الفرنسي ، وللمقالات التي كتبوها ، اثر كبير في كل بادرة من بوادر الاصلاح صدرت عن السياسة الفرنسية فيما يتعلق بالبلدان التابعة لها .

وفي سنة ١٩٣٦ هبت العناصر الطيبة في الجبهة الشعبية تطالب الحكومة الفرنسية بتعديل سياستها في سورية ولبنان ، وتبديل الانتداب بمعاهدة تحالف تكسب الفرنسيين صداقة العرب . وكان غابرييل بيري من اظهر هذه العناصر ومن اوفرها حماسة في الدفاع عن قضيتنا : بذل الجهود الكبيرة لحمل الحكومة الفرنسية على تحقيق هذا المطلب العادل من مطالب الوطنيين السوريين واللبنانيين ، وسهل بنفوذه وخبرته مهمة الوفد السوري في فرنسة . وما كادت تعقد المعاهدة الفرنسية السورية ، مقدمة لعقد معاهدة مماثلة مع لبنان ، حتى جعل السعي لتصديقها هدفاً رئيسياً من اهدافه . فلم يكن لينقضي يوم من تلك الفترة العاصفة الا وله فيه مقال او خطاب او دعوة لتأييدها . وكان بيري مخلصاً في هذا لوطنه ولقضية السوريين واللبنانيين معاً ، لانه كان يعرف انه اذا كانت مصالح

نفر من المستعمرين الفرنسيين تناقض امانينا الوطنية ، فأن مصلحة الوطن الفرنسي ومصلحة الشعب الفرنسي الحقيقية لا يمكن ان تتعارض مع حقوق السوريين واللبنانيين ، بل هي تقوم على تأييدها والنضال في سبيلها ضد مستعمر يستثمر شعبه ويضطهد الشعوب التي يسيطر عليها .

ولكن دسائس الفاشيست الفرنسيين ، التي قضت على مشروع المعاهدة السورية الفرنسية ، استطاعت ان تتغلب — الى حين — على ارادة احرار الفرنسيين ، وان تعطي عملاء الفاشيستية في بلادنا سلاحاً جديداً للنضال ضد الديموقراطية ، فنشط موظفو القنصليات الايطالية وقادة النادي العربي وفلول الحزب السوري القومي ، وجميع العناصر التي شاخت في اثارة الفتن ، لتوجيه سياستنا وجهة خاطئة تخدم مطامع المانية وايطالية الاستعمارية في بلادنا . الا ان هذه المحاولات لم تؤت ثمراتها المرجوة ، لان الكثرة الغامرة من العرب كانت قد بلغت من الوعي القومي والنضج السياسي حداً علمها كيف تصمد لبغتات الامور ، وتتجنب الوقوع في مثل هذه الشراك الخادعة ينصبها الاستعمار الفاشستي الذي يخفي سموم الافاعي وراء دموع التماسيح .

لقد كنا نريد ان نرى وطننا حراً مستقلاً صديقاً للديموقراطية الفرنسية ، متضامناً معها في اخطر مرحلة من مراحل التاريخ ، فاذا كانت السياسة الرجعية الفاشستية قد عدلت بجورج بونه من نهج الى نهج ، فزينت له ان يخلف معنا وعده ، فان هذا لا يمكن ان يطوّح بنا الى الجانب الآخر فنجعل بلادنا

الغالية موطئاً لنعال الفاشيست ، لا يمكن ان يثنينا عن اهدافنا الرشيدة فننكر تاريخنا ونضالنا ومبادئنا ونذعن للعبودية الهتارية ، لا يمكن ان يعدل بنا عن الاستشراف لامانينا القومية ويخرجنا من شفق واعد يموج بالرجاء الى غسق قاتم تعج فيه الثعابين وتضرى الذئاب ، لا يمكن ان يزعزع ثقتنا بالشعب الفرنسي وبالاحزاب والهيئات والشخصيات الموالية لنا والتي ظلت تدافع عن حقوقنا الوطنية دفاعاً مجيداً ، وتطالب بتوطيد اسس التحالف بين فرنسة والعرب ، على اساس الاخاء والمساواة والحرية التي حملتها الثورة الفرنسية الى العالم .

والواقع ان غابرييل بيري وزملاءه الاحرار في فرنسة ، قد واصلوا سعيهم وضاعفوا جهدهم وحملوا حملة شعواء على تلك السياسة الرجعية المستوحاة من تعاليم برلين وروما والتي تسيء الى مصالح فرنسة وسورية على السواء ، ولا تخدم سوى مآرب الفاشيست الذين كانوا يريدون عبثاً اضعاف الصداقة بين الشعبين السوري واللبناني والشعب الفرنسي ، واذا كانوا قد نجحوا موقتاً في محاربة سياسة الاستقرار على شواطىء المتوسط فان هذه السياسة التي يشعر بضرورتها جميع محبي وطنهم في فرنسة وسورية ولبنان ، ما لبثت ان انتصرت بعد انقشاع ظل فيشي عن هذه البلاد وجنوح حكومة الجنرال ديغول الى اصلاح اخطاء الماضي باستبدال الانتداب بمعاهدة تعقد مع السوريين واللبنانيين على اساس الاعتراف بحقوقهم المقدسة في الحرية والاستقلال .

وقد وجه بيري الى العرب يوم اخفقت الجهود التي بذلها

لتصديق المعاهدتين السورية واللبنانية ، رسالة مؤثرة دلت على عظيم اخلاصه لقضيتنا ، ومما قال فيها :

« ... وهل من الشطط ان نطلب من اصدقائنا السوريين ، وان نرجوهم ، بان يساعدونا مرة اخرى في اتمام واجبنا ؟ اني اعلم بان مهمتنا ومهمتكم اصبحت غاية في الصعوبة . لقد عمل الفاشستيون كل شيء لمحاربة الصداقة الفرنسية السورية ، لكن هذا ليس سبباً لان نفقد شجاعتنا او لان نترك انتباهنا الشديد تجاه عدونا الاساسي . ومهما يكن مصير معاهدة سنة ١٩٣٦ فعدونا الاساسي هو عدوكم يا اخواننا في سورية ولبنان ، هو الفاشستية الموسولينية والفاشستية النازية ، عدوكم الاساسي هو التعاليم والسياسة التي تمهد السبيل لتسلط عرق من العروق وتبرر كل ارهاب .

« سيستثمر عملاء هتلر وموسوليني هذا الموقف كما يحلو لهم ، فلا تتركوهم يفعلون ! لا تقعوا في حبائل كذبهم ، لا تنسوا ان هؤلاء الذين يتوجهون اليكم الآن بكلمات معسولة ووعود خلابة هم الذين افنوا سكان طرابلس الغرب واحرقوا مدن البانيا المنكوبة .

« انا لا اكتب هذا مطلقاً لكي اعذر معرقلي المعاهدة الفرنسية السورية ، فهؤلاء مجرمون وسنفضح خطأهم ، ولكن احذروا الفخاخ المنصوبة لكم ! لا تتركوا انفسكم فريسة للاستسلام والشك وفقدان الشجاعة .

« ان معركة كبرى قد بدأت في العالم بين الفاشستية

والديموقراطية . لقد تقاعست الديموقراطيات عن واجبها تجاه العالم العربي ، هذا صحيح جداً ، لكن الفاشستية قد قامت نحوه دوماً بسياسة ضغط وارهاب ، فمن هذا الضغط وهذا الارهاب يجب عليكم ان تحفظوا بلادكم . كونوا واثقين بانكم لستم وحيدين في هذا النضال وانه لا يزال لكم ، ولكم دوماً ، حليف هو جماهير الفرنسيين الذين يحتفظون في قلوبهم بالشعلة التي كانت تضطرم في صدور ثوار ١٧٨٩ واضعي حقوق الانسان ».

هذا ما كتبه غابرييل بيري الى العرب في ١٤ تموز ١٩٣٩، لمناسبة الذكرى المائة والخمسين للثورة الفرنسية ، قبل اعلان الحرب باسابيع ، وهو آخر ما نشر له في الصحف العربية ، فلعله يكون لنا وصية نعمل بوحيها ونستهدي بهديها في حلك الخطوب ، لان الصديق الذي كتبها قد مات شهيداً في سبيل المبادىء التي دعانا اليها ، وبيد الظلم الذي حذرنا منه .

اننا نذكر غابرييل بيري وفي صدورنا لوعة مرة وغصة لا تزول ، وسنذكره دائماً في آلامنا وافراحنا ونذكر ان اليد المجرمة التي قتلته هي التي قتلت انطوان الحاج رفيقه في الجهاد ، وقتلت في الشرق والغرب ملايين من الابطال ضحوا بانفسهم من اجل حرية اوطانهم وحرية العالم .

٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٢

في ذكرى الثورة الفرنسية

كلما سمعت «الصوت الفرنسي» ينشد المارسيليز في هذه الايام، من راديو لندن او كوبيشيف او بيروت، خيل الي انه ليس صوت رجل او رهط من الرجال، بل صرخة امة لا تريد ان تموت، بل مشعل ثورة لن يلبث حتى يصدع سواد الظلام والظلم عن فرنسا ام الثورات ومهد الحرية والنور.

واني لاصيخ الى هذا الصوت بكل جوارحي، فلا افهم معانيه فقط، بل احس نبراته وما يتموج فيها من ألم ابي وطموح جريح. فاذا ردد من النشيد الوطني هذا المقطع:

ايتها الحرية، ايتها الحرية العزيزة!
حاربي مع المدافعين عنك...

خيل الي انه يضطرب ويتهدج، ويغدو اشد تهيباً واكثر عمقاً، كأن النشيد قد حال الى صلاة!

هذه العاطفة المبتهلة، المتهيبة، العميقة، هي التي خالجتني حين

دعيت للحديث في ذكرى الثورة الفرنسية عن مبادئها الخالدة (١) ، لان الحديث عن هذه المبادىء هو حديث عن اماني الانسانية في جميع البلاد والعصور ، ولم تكن الانسانية في زمن من الازمان مهددة بالقضاء على امانيها شأنها اليوم .

●

لقد نادت الثورة الفرنسية بالمساواة ، فاصبحت هذه الكلمة لاول مرة شعار نضال سياسي ، وكانت تعني الغاء الفروق بين النبلاء والاكليروس والفرسان والعامة ، ومساواتهم في الحقوق .

الا ان المساواة لم تبلغ يومذاك ذروتها ، فظل النضال من اجلها مستمراً ، وان لم تأخذ مدلولا عملياً في اذهان كثير من الناس ، لانهم لا يزالون يطلقونها اطلاقاً خيالياً لا يرتبط بظروف مادية من الزمان والمكان .

ان اعداء المساواة يجعلون من هذه الكلمة البسيطة كلمة مركبة لكي يستطيعوا محاربتها ، وكثيراً ما يرددون أقوال اشعب الذي تنبأ بعهد يمشي فيه الاعرج ، والاعمى يستطيع ان يرى ، وضعيف العقل يزداد باضواء المعرفة — يرددونها ساخرين كلما رأوا دعاة التقدم يعملون على تحرير الانسان ، ليثبتوا لهم التفاوت الاجتماعي ازلي كالتفاوت الطبيعي. سوى ان دعاة المساواة لا يدعون الى المستحيل ، ولا يزعمون ان من الممكن ان يتساوى الناس في الاجسام وفي العقول ، وهم اذ ينشدون المساواة لا ينشدون من ورائها الا محو الظلم الاجتماعي الذي يمنع ذوي الاقدام الصحيحة

(١) القي هذا الحديث من محطة راديو الشرق

عن السير، ويقضي على المبصر ان يعيش في الظلام، ويحول دون ذوي المواهب وما ينزعون اليه من المعرفة.

ويحسب بعض الناس ان دعاة المساواة يريدون ان يتقاسم الناس بالتساوي، انتاج الارض والمصنع، دون النظر الى اختلاف كفاءتهم ومقدرتهم ومدى انتاجهم. وهم يوهمون التاجر صاحب الحانوت، والفلاح صاحب الارض، والمثقف الدي جمع مقداراً من المال، والموظف الذي بنى لاسرته بيتاً، بان ملكه سينتزع منه ويحرم ثمرة جهوده واتعابه. وليست هذه النظرية الا من مبتكرات خيالهم، ولم تقل بها المذاهب الاجتماعية التي لا ترى الان في المساواة سوى معنى واحد هو الغاء التفاوت الطبقي في المجتمع، والغاء التفاوت الجنسي في العالم، وتوزيع الانتاج على الناس حسب العمل الذي يقوم به كل واحد منهم، حسب نوع هذا العمل ومقداره ودرجته. وما دام هناك عمال متخصصون وعمال غير متخصصين، ما دام هناك افراد نشيطون واخرون مبتلون بالعجز او بالكسل، ما دام هناك نوابغ واغبياء، فلا بد من ان يكون هناك ايضاً فرق بين الاجور التي يتقاضاها كل واحد من هؤلاء.

المساواة في النشأة الاولى، في حق العمل والراحة وفي حق العلم والثقافة، والمساواة بين الرجل والمرأة، والمساواة بين القوميات المختلفة — هذه هي الدعائم الصحيحة لنظام اجتماعي وامي صحيح، يعطي الجميع امكانيات متكافئة تسمح لهم بأن يتنافسوا تنافساً حقيقياً، فلا يعيش احد عالة على احد، ولا

يخدم المنتج العاطل عن العمل ، ولا يخنق الموهوب مواهبه الفنية او العلمية في سبيل الحصول على لقمة يكفي بها جوعه ، ولا ينال الانسان الا بقدر ما يعمل : ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

اما الذين يقولون بجعل الناس في مستوى واحد ، وعلى شكل واحد ، ولا يرضون بغير هذا النوع من المساواة بديلا ، فهم اعداء المساواة ، اذ لا يمكن ان نطمح الان الى اكثر من تحقيق هذه القاعدة : من كل انسان حسب كفاءته ، ولكل انسان حسب عمله .

•

ونادت الثورة بالاخاء ، ومن ذا الذي نادى الى الاصلاح في قديم الزمان وحديثه ، ولم يجعل من الاخاء الفكرة القائدة التي يصدر عنها واليها يسير ؟

ولقد كان شرقنا ، وكانت بلادنا ، مهد هذه العاطفة السمحاء يوم ظهر فيها رجل متواضع القلب ، ولد في مذود ، وعاش عمره يمسح دموع البشر بكفه الرحيمة ، وينادي : احبوا بعضكم بعضاً .. اصنعوا بالغير ما تريدون ان يصنع بكم . ويوم تمخضت الصحراء بالرسول العربي الذي حارب عصبية الجاهلية وقال شرعه الحكيم : يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم.

وكان من حق هذه الكلمات البسيطة ان تقلب العالم، وتفتتح

عصراً جديداً ، ولكنها ما لبثت ان ضاعت في صرخات الحقد وانين العبيد ، وزئير الشعوب المضطهدة ، واصطدام الحديد بالحديد . وفي هذه الظلمة الداجية ارتفع مشعل الثورة التي هزت عروش الاقطاع ، وحطمت امتيازات السادة ، واعلنت حقوق الانسان ، فاصبحت شرعة العالم الجديد .

وهبت انفاس الحقد مرة ومرات على هـذه الشعلة المباركة تريد ان تطفئها فسال الدم الفرنسي للدفاع عنها في سني ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ .

وتطور الزمن ، فاذا بملايين الناس يشقون في المناجم والمعامل وساحات الحرب ، فارتفع صوت جديد منادياً شعوب العالم الى التآخي والاتحاد في مكافحة العاملين على شقاء الشعوب ، وكان احفاد الثورة الفرنسية في طليعة من لبوا النداء ، وسعوا له ، وضحوا من اجله .

•

ونادت الثورة بالحرية ، والحرية هي الفكر الحي الذي لا يخضع للقواعد المرسومة والحظوظ المقسومة .

هي رفيقـة المضطهدين ، افراداً وشعوبـاً ، في مشرق الارض ومغربها ، ترافقهم وتبعث فيهم روحاً جديدة ، وتؤكد لهم ان الفجر قريب .

فيا ايتها الحرية ، يا روح المارسيليز التي توقظ الشعب الفرنسي مرة اخرى ..

ان احفاد الثورة الفرنسية الذين استبدلوا من شعاراتها شعارات جديدة ألصق بروح العصر، وجدوا اسمك المشتعل قبلة لجميع العصور فقالوا : الحرية والخبز والسلام . لقد رأوا ان الخبز والسلام لا يكفيان ، لان وراء الرخاء المادي ، ووراء الامن الشامل ، فرحاً اكبر هو فرح الفكر الحر الذي يتمخض دائماً بثورات جديدة واصلاحات جديدة هي الضمانات الوحيدة لتقدم الانسان .

وان الفرنسيين الذين ابوا الا ان يحاربوا عدوهم وعدو الانسانية ، بالعدد القليل والعتاد اليسير ، ارادوا ان يختاروا رمزاً يعبر عن تمردهم على الطغاة ، وعن شجاعتهم التي لم تغلب ، وعن الثورة التي يزمعون القيام بها ، فلم يجدوا سوى اسمك الاحمر .

ايتها الحرية التي حطمت سجن الباستيل : ان اوربا اضحت باسرها سجناً رهيباً .. فحاربي ، اليوم ايضاً ، مع المدافعين عنك !

١٤ تموز سنة ١٩٤٢

تحية الى الشعوب السوفياتية

يحتفل العالم اليوم ، من اقصاه الى اقصاه ، بمرور خمس وعشرين سنة على الانقلاب الروسي الذي سجل بدء حقبة عظيمة في تاريخ الانسانية . وهو اذ يحتفل بهذه الذكرى العابقة بالامجاد ، انما يحتفل بالعمل الخالق والفكر المبدع والتطور الواثب ، في زمن تحاول فيه النازية ان تلوي عنق الانسانية الى عصور الهمجية وشرائع الغاب — فكأن في ذلك حكما على هذه الردة بانها لا تستطيع ، مهما اوتيت من قوة البطش ، ان تشغل الناس عن الغايات الرفيعة والقيم السامية ، ومناداة بان هذه الغايات والقيم هي الغالبة في هذا الصراع لانها مؤيدة بقوانين الحياة السائرة والمتطورة .

ونحن العرب نشارك العالم الاحتفاء بهذه الذكرى مشاركة صادقة ، ونقدر الجهود الجبارة التي بذلها السوفيات لبناء وطنهم الكبير على اسس قومية وانسانية صحيحة ، ولشق الطريق المثلى

الموصلة الى ارفع درجات الرقي . فالاحتفاء بهذه الجهود هو احتفاء بآمالنا في الحياة ، وتذكير بما نسعى لبلوغه من المطالب القومية والحقوق الاجتماعية والحريات الديموقراطية ، ومساهمة في تكريم المناضلين من اجل هذه المطالب والحقوق والحريات.

واني لسعيد وفخور ، بان ادعى للتعبير عن شعور العرب، في هذه البقعة من الارض ، لهذه المناسبة العظيمة (١) ، وان كنت استصغر شأن الكلام في مثل هذا الموقف ، مهما جل الكلام وتسامى . ففي هذه الساعات ، وقد اشتد الوغى واستحر الموت ، وغمرت العالم اهوال من الشر ينكرها الشر – في هذه الساعات العصيبة الحاسمة في حياة الانسانية لم يبق الا مكان واحد يليق بالشرفاء وهو الجبهة التي تحارب القبيلة الملعونة :

وجه الردى مستحسن في معرك
وجه الحياة بحومتيه جميل

لذلك اراني حائراً اذ اتوجه بالحديث اليكم ، يا اخواني ابناء الشعوب السوفياتية . ان ما يجيش في قلبي لا استطيع ان اعبر عنه ، وليس ما اكتبه واقوله الا كصورة الحريق على لوحة الرسام فيها الوان اللهيب وظلاله وليس فيها حرارته واحتدامه .

ان اسم ستالينغراد ليرن في اذني رنين الالم والفرح معاً ، فكيف يكون لقلبي قرار على صياح هذه العاطفة المزدوجة ،

---

(١) اذيع قسم من هذه « التحية » من محطة راديو الشرق ، في مساء ٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ .

وكيف لا يكبر على نفسي ان لا املك للمساهمة معكم في مصارعة زوبعة الموت سوى قلم ضعيف ، مهما تفرّج له في جوانب البيان فلن اظن به الوفاء بوصف بطولتكم .

يا ايها المناضلون الذين يدافعون عن تراثهم الوطني وتراث الانسانية ، الحاملون على راحاتكم مستقبل العالم ، الباذلون دمكم من اجل حريتكم وحرية الشعوب كلها — اني لاحمل اليكم من الشعوب العربية تحية بسيطة حارة صادقة . تحية معجب بمبادئكم المثلى ، مقدر لجهادكم النبيل وشجاعتكم الخالدة . تحية معترف بجميلكم اذ حملتم وحدكم عبء النضال ضد العدو المشترك . تحية ليس ثمة وجه من الشبه بينها وبين التحيات التي ترسل اليكم مجاملة وملاطفة وتفضلا . فنحن اذ نرسل اليكم تحيتنا لا نحاول ان نزيدكم حماسة وايمانا ، ولا نخفي وراءها ما يشوبها ، بل نؤدي بعض الواجب الذي يدين لكم به جميع احرار الدنيا . ونحن ، اذ نصفق لكم ، ونشيد بكم ، ونمجد اسماءكم ، لا يكون ذلك اعترافاً منا بالمستوى الرفيع الذي تتبوأونه بحق ، بل دليلا على اننا في مستوى رفيع لاننا نفهمكم ونقدركم ونهتف لكم ، انتم الذين لا تقتصر بطولتكم على غرض واحد من اغراض الحياة ولا تنتهي من اسباب الدنيا عند حد .

ان خمسة وعشرين عاماً لا تكفي لخلق انسان واحد ، لكنها كانت كافية في بلادكم لمحو عالم وخلق عالم . وهذا العالم الجديد الذي ولد في ٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ ، ما زال يسير مذ ذاك ،

من فجر الى فجر، ومن انتصار الى انتصار، حتى قرب الابعاد والاضداد، وربط بلادكم بالوف المدن من سائر الاقطار ومنها مدينة بيروت في لبنان، والهم اقلاماً لا تعد في مشرق الارض ومغربها ومنها القلم الذي جرى بهذه التحية.

انها لحياة حافلة بالاحداث تلك الحياة التي قضيتموها في ربع قرن، غص اوله بالدم، وفاض آخره بالدم، وشهد بين ذلك بناء ليس له مثيل. هي خمسة وعشرون عاماً في حساب الزمن، لكنها في حساب المدنية خمسة وعشرون قرناً: «ان يوماً من ايام الله كالف سنة مما تعدون».

وها ان بلادكم بعد انعتاقها من قيودها، تفتح امام العالم ثبت تجاربها لينتفع منها. تجارب، بل معجزات، تعانقت فيها شتى المتناقضات، فاذا الروسيا التي كانت سجناً للامم تتحول الى اتحاد للامم، تعيش فيه، تحت ظل السلام، مائة وثمانون قومية مختلفة اللغات والالوان والعروق والاديان، كان اختلاف عناصرها وخصائصها مثاراً للحروب الاستعمارية والنهب الاقتصادي والاحتقار الجنسي، فاصبح مصدراً لثروة باذخة في ميداني المادة والفكر. واذا تلك الشعوب التي كان اسمها مجهولا من العالم المتمدن، وكانت محرومة من اسباب الحضارة كلها، وحتى من لغة تكتب بها، تطفر الحياة الاجتماعية فيها طفرة جبارة تتخطى في سنوات قروناً من التطور التاريخي، وتظهر للعالم ان التطاحن بين القوميات والشعوب واستعباد الامة القوية للامم الضعيفة، ليس قانوناً طبيعياً ابدياً، وانه من الواجب، ومن

الممكن ، ان يحل التآخي محل التطاحن والتعاون محل الاستعباد ، وان تسقط حواجز الالوان والعناصر والطبقات لكي تلغى الحروب وتزول الاحقاد ويبطل استعباد شعب لشعب وفرد لآخر ، ويتعاون جميع الشعوب والافراد على البناء والخلق كما تتعاون عائلتكم الفريدة في التاريخ .

تجارب ، بل معجزات ، جددت شباب مملكتكم ، وبعثت قواها من الاعماق التي هجعت فيها دهراً طويلاً ، وعلمت العالم كيف تسير مرافق الحياة في اتجاه واحد هو الصعود ، فاندحار الشعب في عام ١٩٠٥ يلد انتصاره في سنة ١٩١٧ ، والفرق الثورية الصغيرة تتحول الى جيش عظيم ، والمدرعة « اورورا » تصبح نواة الاسطول الاحمر ، واشد الاقطار رجعية وتأخراً وخراباً تغدو خلال سنوات معدودات في طليعة الاقطار صناعة ومدنية وعمراناً .

تجارب ، بل معجزات ، اعادت الى الانسان ثقته بنفسه . لم تكتف باعطائه حقه في الثقافة والراحة والضمانات الاجتماعية ، ولم تقتصر على اعطائه الحريات التي يطالب بها ، بل بذلت له الوسائل اللازمة للتمتع بهذه الحقوق والحريات . ولم تخضع المجتمع لقانون تسوية عامة ، بل وزنت اقدار الناس على اساس مواهبهم وكفاياتهم ، وفتحت السبل الممكنة لانماء المواهب كلها واظهار الكفايات جميعاً . لقد سخرت وسائل الانتاج لخدمة الانسان فتغيرت

معاني القيم الانسانية : كان المصنع سجناً للاعمال الشاقة فأصبح ملهاة ومدرسة . وكانت الارض وسيلة لاستعباد الانسان فصارت ملكاً له يروضه باسباب الحضارة . وكانت العائلة بؤرة للنفاق والخيانة واوشاب المادة ، فاصبحت تقوم على اساس الحب المتبادل . وكان الولد كَلّاً على ابويه وعبئاً عليهما ثقيلاً ، فاضحى بهجة للقلب والعين وسعادة نامية ، منطلقة على دروب رحيبة معبدة . وكانت الجيوش طوائف منفصلة عن الشعب تزعم انها تحميه وما هي الا اداة استعباده وتسخيره لاستعباد الشعوب الاخرى ، فاصبحت وغايتها الوحيدة الدفاع عن ارض الوطن ، وواجب الجندي فيها قائم على الفهم للمهمة المنوطة به وليس هو خاضعاً لارادة افراد يسيرونه كما يشاؤون ويضحون به من اجل منافعهم الخاصة ، وامست المؤخرة جزءاً من الجيش تؤلف معه كُلا موحداً متراصاً يتساهم واجب القتال بجميع الاساليب والوسائل المتوافرة .

تجارب ، بل معجزات ، جَلَت عجائب الاضداد ، فرأينا في نورها كيف يصبح الاخير اولا ، والبغي مربية ، واللص مؤتمناً . كيف تجتمع الاشتراكية والملكية معاً . كيف يجيد الحربَ رجالُ السلم . كيف يكون الحاكم قائداً ورفيقاً في آن واحد . كيف تحمي السلطة حقوق المتدينين ولا يتدخل المتدينون بالسلطة . كيف يتحول اضطهاد رسول بيان الله الى تقدير لعبد الرحمن رسول . كيف تصبح المرأة رفيقة للرجل لا أمَة له . كيف تتحقق مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ولا

تتعارضان . كيف ينعقد دخان المصانع الضخمة في البلاد الزراعية . كيف تنبت الورود في القطب من ضمير الجليد . كيف تتحول الصحاري في آسيا الوسطى الى واحات . كيف يوجد العلماء انواعاً جديدة من النبات . كيف تضحك السعادة في بيوت لم يكن يدخلها النور الا وهو باك عليها . وكيف ان قدرة الانسان على توسيع العالم اوسع جداً ، اوسع جداً ، مما كان الناس يحسبون .

هي صور التطور في تمام ظهورها واكتمال نموها ، يجلو بعضها بعضاً فتبدو رائعة بجلالها غير متناهية في مداها ، قد برئت من كل ما يؤذي الضمير ويجرح البصر ، وانقلب فيها المستحيل ممكناً والخيال حقيقة والحلم يقظة ، فكأن العقول كانت تبني ، وكأن الايدي كانت تفكر ، وكأن الاقدام كانت تطير — في شعوبكم العظيمة التي انبثقت من الظلام وانشأت الحياة من عدم : « ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي »

على هذا النحو كانت شعوبكم تمثل الحياة وتبنيها ، لما فاجأتها النازية ، لعام وصدر من عام ، بالسلاح الجائع والجيش المجنون ، فاذا وجوهكم التي لم تنقبض في خمسة وعشرين عاماً الا من الضحك تنقبض من الجد والحزن ، واذا النسائم التي كانت ترف هازجة على نهر الدون قد داخلها شجو الانين ، واذا طلقات النار تتجاوب بين اشجار الزيتون ، والجثث تتساقط على السنابل الشقر ، وتراث الفكر يداس بالنعال ، وحراب الجنود تطعن

ابتسامات الاطفال ، والدنيا حمراء كأنها من الدم قد خرجت ، والشباب السوفيات يسعى اليهم الموت بالف شدق فاغر وهم اليه يسعون ... وهكذا التقى الموت والحياة وجهاً لوجه .

وفي هذه الحرب الضارية التي لم يشهد التاريخ مثيلاً لها ، اقمتم الدليل لمن كان لا يزال بحاجة الى دليل ، على ما توافر لكم من سمو الروح وحياة الوجدان وقوة الوحدة ، وما يتوج كل اولئك من حب واع عميق لوطن يشدكم الى ثراه نظام سنّه لكم مشترع عظيم يحتفل العالم اليوم بذكرى انتصاره وهو راقد في ساحة موسكو قرير البال لانه قبل ان يغمض عينيه فتح عيون الملايين .

•

وفي بلادكم ، ولاول مرة في تاريخ هذه الحرب ، اصطدمت الجيوش المحاربة بمقاومة فعالة ، وما هي الا شهور معدودة استيقظتم فيها من صدمة المفاجأة ، حتى اصبتم تلك الجيوش بأول هزائمها وقضيتم على الخرافة التي نسبت اليها المناعة والعصمة ، ولو كنتم تحاربون المانيا وحدها لربحتم الحرب يومذاك ، لكنكم كنتم تحاربون اوروبا بمواردها الصناعية والبشرية كلها ..

ثم تتابعت الملاحم ، فقضيتم على ملايين الجنود المحوريين ، واحبطتم امل هتلر بالنصر في هذه الحرب ، لانكم فضلاً عن تحطيم قواه واستنزاف موارده ، قد اعطيتم بريطانيا واميركا فرصة مكنتهما من زيادة انتاجهما وتعزيز قواهما .

واليوم تقف جيوش العالم الضرير على ابواب مدينة الفولاذ التي تحمل اسم رجل الفولاذ، وهي تنوح وتجدّف وتتخبط في وحول الدماء. انها على جناح هوة كئيبة هي هوة الموت، فلا هي تستطيع ان تتقدم فتتردى فيها، ولا هي تستطيع ان تعود في الطريق التي زرعها الانصار وراءها بما هو اهول من الموت. وقد لبثت هذه الجيوش ثلاثة اشهر سوياً، وهي ترتعد على حافة هذه الهوة العظيمة التي تشبه الفضاء اتساعاً والليل ظلاماً.

هناك هوات للخير يتردى الشر فيها، وستالينغراد هوة عظيمة تبتلع القوى الفاشيستية المهاجمة. في العام الماضي كان هتلر يحتل الاقطار الكبيرة في ايام معدودة، والان، بعد مائة يوم من هجوم متواصل اشتركت فيه القوى الاوروبية كلها، يعلن عجزه عن احتلال عروس الفولغا. فيا عجباً، هل روى التاريخ ان مدينة تقهر قارة؟ وفي مثل هذه الحرب الصاعقة؟

•

مسكين هتلر، انه لا يفهم بلادكم، لانه لا يستطيع ان يفهم كيف لا ينحني شعب من الشعوب امام اكبر قوة عسكرية في العالم. لقد داخله العجب حيناً فخيل اليه ان الزمان قد اصبح في قبضته فهو يستطيع ان يتصرف باقدار الناس كما يريد. وها هو اليوم واقف على جناح الهوة التي حفرتموها له، وقد احس انه الضعيف المهزول امام القوي

القادر ، فكأنه ليس الرجل الذي كان الى شهور خلت يطحن الامم طحن الحصيد ويذري غبارها مع الريح . لقد كان يخشى السلم اذ لا حياة لنظامه مع السلم ، فلما دخل الحرب وجد ان لا حياة لهذا النظام مع الحرب ايضاً . انه لينظر دهشاً الى مدنكم المشتعلة ، ويرى يائساً كيف تخوض جيوشه ذلك الموج الاحمر . ان عبئاً ثقيلاً قد استقر فوق صدره هو جماجم ملايين الالمان الذين قتلهم . وهناك جماجم اخرى تكشر في وجهه تكشيرة كظيمة ، هي جماجم الالمان الاحياء تبصق في وجهه قرف الموت من شيطان الموت ... فيا ايها السائر الى القبر ، لقد غرتك سهولة المدخل .

•

لشد ما تذكّر ستالينغراد بموسكو . ان اول قنبلة جرحت العاصمة السوفياتية قد جرحت قلب الانسان ، لكن موسكو قالت : كلا ، ولو تحطمت هذه الكلمة لتحطم قلب الانسان . ولشد ما فرحت عيناي اذ شاهدت في شريط الدفاع عن موسكو فلول الالمان الهاربين . ولشد ما يبتهج الآن قلبي اذ اسمع صرير المسمار الذي تدقه ستالينغراد في تابوت النازية .

يسمي الالمان ستالينغراد : طريق الموت . اجل ، وانها لطريق الحياة ايضاً . وليس لاول مرة يلتقي الموت والحياة . وليس لاول مرة ايضاً تثبت الحياة انها اقوى من الموت . ان انفاس الفولغا لا تزال تنعقد في سماء تلك المدينة ، وان

عيدان الشجر لا تزال تصطفق على عدوتيه ، وان الحقول المترامية لا تزال تذكر بمناعم العيش ، وكل شيء يدعو الى الحياة في ذلك القطر ، قطركم ، الذي فهم معنى الحياة .

ولله ما اروع الحياة غداً حين يمر هذا العاصف عن العالم، وينجلي موج الليل عن صبح انور ، ويطل الربيع على الارض الخراب فيعيدها ارضاً للحب والخصب ، وتسير الحياة من جديد في طريقها الصاعد . فينتصب الشباب انتصاب الجذع ، ويرجع الغارس والباني الى غرسه وبنيانه ، ويضحك الامل للعذارى ويضحكن له ، ويخلع السلام على بلادكم ثوباً من البهاء والرواء ، ويعود « هادئاً يجري الدون » !...

•

وطننا يصعد نحو القمم... هكذا كان يغني عمالكم. الحرب عاصفة ... هكذا ينشد اليوم جنودكم . ومن اجل هذا تبذلون دمكم بسخاء : لانكم في صعودكم نحو القمم عَدَت عليكم عاصفة الحرب فاوشكت ان تقوض ما بنيتم من الاعمال في عمركم ، وما بنيتم من الآمال لغدكم . من اجل بلوغ القمم ناضلتم وتألمتم لكنكم انتصرتم . ومن اجل الاحتفاظ بهذه القمم تناضلون وتتألمون لكنكم ستنتصرون . ومن اجل هذا ايضاً ، من اجل بلوغ القمم ، يتحد معكم جميع الشرفاء في العالم ، على النضال والالم والانتصار ، واننا لنعاهدكم ، نحن ، على ان نبذل واجبنا في النضال ، ونتحمل قسطنا من

الالم ، لكي نستحق التمتع بثمرات النصر .

ولقد كنا ، نحن العرب ، دائماً ، اوفياء بعهودنا ، مخلصين لمثلنا ، مناضلين من اجل الهدى ، سباقين في ضروب الشجاعة ، لا نهاب الموت في سبيل الحياة . فارجعوا البصر في التاريخ العربي تروا فيه الوف الابطال يقولون كما قال خالد بن الوليد عند الاحتضار : « لقد شهدت مائة زحف او زهاءها وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة او طعنة او رمية ، ثم ها انذا اموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت اعين الجبناء » . بل انكم لترون القرآن ينكر ان يكون الجبان مسلماً : « يحلفون بالله جهد ايمانهم انهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرَقون (أي يخافون) لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلاً لولوا اليه وهم يجمحون »

ولا ريب في ان ملايين المسلمين السوفياتيين يعرفون هذا ويشجعهم على النضال ، ألم يقرأوا في القرآن قوله : « وان طائفتان اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي » . ثم ألم يقرأوا قوله : « ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » بلى لقد قرأوه وقرأوا قول النبي : « اذا رأيت امتي تهاب الظالم ان تقول له انك ظالم فقد تُودع منها » فعرفوا ان الاسلام ثورة على الظلم ، ودعوة الى العدل الاقتصادي : « وليس للانسان الا ما سعى » والتضامن الاجتماعي : « كلكم راع وكلكم مسؤول » . وتآخي الشعوب : « يا ايها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

فها انتم ترون ما بيننا وبينكم من وجوه الشبه واواصر القربى ، يوم كنا راية الحق وجنوده . واذا كان لم يبق لنا من ذلك الميراث العظيم سوى رايته ، فان نضالنا متواصل لتجنيد الجنود .

فاليكم يا جنود الحق تحية بسيطة صادقة متفائلة ، تحية ولاء واخاء وتعاهد على النضال ، يوجهها احفاد محمد بن عبد الله وابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والوف الابطال الاحرار الذين كانوا مثلكم : جنود الحق .

٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢

نضال الشعب الفرنسي

في كل يوم جديد يسجل الشعب الفرنسي انتصاراً جديداً في مقاومة الفاتح ، وخطوة جديدة يخطوها في الطريق التي يشقها بين حراب الطغاة من اجل حرية وطنه .

في الشهور الاولى من الاحتلال حاول الالمان ان يفاجئوا هذا الشعب الباسل ، وهو في صدمة الانكسار وغمرة الحيرة ، بدعايتهم المرائية المضللة ، فيجروا عناصره الضعيفة الى معسكر « النظام الجديد » . وكان انصار سياسة التعاون من الفرنسيين ، يلقون في روع مواطنيهم ان الجيش الالماني لا يُغلب ، بل لا يقاوم ، فهو منتصر حتما وباسط سلطانه على اوروبا ، فمن العبث تحدي العاصفة الباغية ، وخير للمرء ان ينحني امامها فيأمن خطرها من ان يقف في وجهها فيعرض نفسه للهلاك .

وكان الالمان يأملون ان تصيب هذه الدعاية نجاحا ، فيهرع الشعب الفرنسي لخدمتهم والتعاون معهم ، لينال الحظوة في عين

الغالب فلا يعامله معاملة المغلوب . وكانوا يحسبون ان لصنائعهم من الفرنسيين نفوذاً شعبياً خليقاً بان ينقل الشعب الفرنسي من طور الى طور ، فيسلّم بالامر الواقع ، ويخضع له ، ويستكين .

للشعب الفرنسي ، كغيره من الشعوب ، حسناته وعيوبه ، لكنه يحتفظ دائما ، وفي غمرة الكوارث ، بفضيلة ثمينة هي ولعه بالسخرية ، الا ما كان منها موّجهاً اليه والى مقدساته في الحياة ، فانه لينقلب على الساخر حينئذ بسخرية أمر واقسى وأنفذ الى الاعماق . ومن ثمّ استحال على ابناء الريخ الثالث ، وهم على ما نعلم من صلف وجبروت وكبرياء ، ان يخدعوا احفاد الثورة الفرنسية بمهزلة سموها سياسة التعاون وما هي الا التسليم للفاتح والتخاذل امام الطغيان .

واظهر مظاهر الاخفاق الذي منيت به سياسة النفاق الالمانية في فرنسا ، اخفاقها في تأليف الاحزاب . فقد عرف الالمان ان في الفرنسيين مساً من شيطان السياسة ، فرأوا ، وقد الغوا جميع الاحزاب السياسية ، ان يتطوعوا بتأليف احزاب فرنسية جديدة ، فانشأوا « الحرس الفرنسي » ، واسسوا له فروعا ومكاتب في امهات المدن الفرنسية ، لكن هذه المكاتب ظلة خالية الا من الموظفين المأجورين ، ولم تتلق سوى زيارة الاحجار التي رُجم بها اولئك الموظفون المأجورون .

بعد « الحرس الفرنسي » انشأ الالمان « العصبة الفرنسية » وعهدوا بتنظيمها الى رجل يدعي كوستانديني قيل انه كان يعمل في احدى طائرات القنص ، فاثبت هذا القناص براعة

تجلت في عدم قنص الاعضاء لعصبته ... الا انه لم ييأس ، واصدر جريدة سماها « النداء » وملأها بالدعوة الى مبادئه ، لكن عبثاً كان يحاول ، اذ ظل نداؤه دون جواب .

واشتد غضب الغستابو امام هذه التجارب المخفقة ، وتضاعف جهدها لتحقيق مقاصدها ، فوقعت على نائب سابق يدعى ديلوناي ، اسس حزب « النار » ، وسمى نفسه « سيد النار » ، وجعل مقره في البناية التي كانت تشغلها نقابات العمال ، واصدر منشورات صفراء وخضراء وحمراء تفيض حماسة ملتهبة ! لكن الفرنسيين استقبلوا هذه النار ببرودة الثلج ، واضطر الالمان بعد ستة اشهر من استخدام ديلوناي ان يمنعوه من مغادرة مكتبه اذ تبين انه مصاب بالجنون ، وان مرضه يتفاقم كلما اخفق في ادراك مبتغاه .

وجيء اخيراً بمارسيل ديا الذي بلغ من تعاليه وكبريائه انه اصبح يرى نفسه فوق جميع الفرنسيين ثقافة وذكاء وخبرة ، وبلغ من تسفله وانحطاطه انه غدا آلة في ايدي اعداء وطنه . انشأ ديا حزب « الائتلاف القومي الشعبي » بالتعاون مع اوجين ديلونكل الذي كان قبل الحرب قائد المنظمة الارهابية المعروفة باسم الكوغولار ، وهي احد الفروع النشيطة للطابور الخامس في فرنسا . لكن زعيمي الائتلاف لم يلبثا ان اختلفا ، فبقي ديا وحده ، والف ديلونكل حزباً جديداً باسم « الحركة الاجتماعية الثورية » . وبعد تأليف هذا الحزب باسابيع معدودة وجدت في نهر السين جثة تونيا ماس سكرتيرة ديلونكل ، واتهم الرأي العام

بقتلها اثنين من اعضاء الكوغولار هما فوران وديلاكور اللذان اتهما قبل الحرب باغتيال الاخوين روسلي المناضلين الشهيرين ضد الفاشستية في ايطاليا . وبعد شهور من مقتل تونيا ماس اعلنت احدى الصحف نبأ زواج فوران بأبنة ديلونكل ، وتساءلت جريدة ديا عن سبب صمت المحققين في قضية سكرتيرة « حزب الحركة الاجتماعية الثورية » .

في تلك الاثناء ظهر حزب جديد هو « الحزب الشعبي » ، أسسه جاك دوريو . وعبثاً حاول هذا الرجل ، الذي لم يكن شعبياً ، ان يعيد الى حظيرته بعض الشبان الذين اضلهم بدعايته قبل الحرب ، فحتى هؤلاء قد احتقروه وانفضوا من حوله .. وبقي دوريو الحزب كله ، كما بقي اسمه وحيداً في « لجنة » الحزب .

امام هذه المحاولات العديدة التي اخلفت ظنون الالمان ، لم يجد هؤلاء بداً من ان يرفعوا القناع الذي كانوا يحجبون به قبحهم وضراوتهم ، وان ينشبوا في عنق فرنسا مخالبهم العريقة في الاجرام . واذا المقص الذي كان يعمل في الصوف الفرنسي بمهارة فائقة ورفق مقصود ، يبلغ اللحم . واذا الضحية التي كانت تتحمل الاذى كارهة ذاهلة ، تتململ تحت يد الجلاد . وكانت اسطورة المناعة التي نسبت للجيش الالماني قد دفنت في ثلوج الروسيا مع ملايين الجنود الالمان الذين قضوا هناك ، فاشرق في فرنسا الرجاء . ثم كانت قضية العمال الذين حاولت السلطة ارغامهم على الخدمة في المصانع الالمانية ، فاشعلت

هذه القضية النار في الصدور . واذا اضفنا الى هذه العوامل الثلاثة ما تعانيه تلك الامة الكبيرة من بؤس وجوع وارهاق ، ندرك حقيقة البركان الذي يجيش وينذر بالانفجار في قطر حفل تاريخه بامجاد الوطنية الواعية الثائرة .

ان التعويض المالي الذي ارغمت فرنسا على تأديته للفاتح وقدره اربعمائة مليون فرنك في كل يوم ، قد افضى بفرنسا الى كارثة اقتصادية راعبة . وقد تطرقت الصحيفة السويسرية « والكرشت » اخيراً الى هذا الموضوع فقالت ان النقد الورقي المتداول قد بلغ ثلاثمائة مليار فرنك ، وان الديون التي تستحق على الدولة في نهاية ١٩٤٢ تجوز التسعمائة مليار فرنك .

وقد وضع الالمان ايديهم على المشاريع الصناعية الفرنسية الكبرى ، ولا سيما مصانع المنتجات الكيمية والمعدنية والانشاءات الميكانيكية ومعامل النسيج . وارسلوا الى بلادهم اكثر القطر والعربات والسكك والاسلاك وغيرها من المواد الحديدية . ورغم الاحتياج المتزايد الى مواد الاعاشة في فرنسا ، طلبوا من حكومة فيشي ان ترسل الى المانيا خمسمائة الف طن من القمح ، فاضطرت ان تتنازل عن ربع الحبوب التي جلبتها من مستعمراتها لتكون بذاراً للموسم القادم .

وقد قسمت السلطة الالمانية المنطقة المحتلة من فرنسا الى عدة مناطق . واعتبرت الالزاس واللورين منطقة ملحقة بالمانيا اقتصادياً ، وفرضت على هذه المقاطعات ان تسلم المانيا جميع محصولاتها الزراعية .

ومن عجب ان تتذمر الصحف الالمانية ، بعد هذا ، من اهتمام الباريسيين بانباء الجبهة الشرقية ، وان تنصح طلاب الصوربون الذين اغلق معهدهم ، والعمال الذين اغلقت مصانعهم ، واقرباء الشهداء والاسرى ، وجميع الجائعين والمضطهدين — ان يكفوا عن تسقط الانباء السوفياتية التي تقدم لهم مثلاً مشجعاً على النضال ضد المستعمر ، وان تزين لهم الالتحاق بالفرق التي يؤلفها دارلان للسهر على سلامة الجيوش الالمانية وحمايتها من الفرنسيين وحلفائهم ؟ لكن شباب باريس قد اجابوا على هذه النصيحة بنصيحة اجدى منها ، اذ الصقوا على جدران المدينة الوفاً من المناشير تدعو الجنود الالمان انفسهم الى تتبع انباء الجبهة السوفياتية .

وليس شباب باريس وحدهم يتحدون الفاتح ويتصدون له ، فالفرنسيون كلهم يقفون منه هذا الموقف الباسل ، ومن الخطأ ان نحسب ان هناك فرنسا مخلصة وفرنسا خائنة ، فثمة فرنسا واحدة ونفر من الخونة ، وهؤلاء يعرفون هذه الحقيقة جيداً ، واذا كانت حكومة فيشي لم تسلم الاسطول للالمان فلانها واثقة من ان بحارة الاسطول وضباطه لن يسلموه .

وقد كان توحيد منظمات المقاومة السرية في فرنسا ، على تباين الاراء السياسية التي تدين بها ، انتصاراً راسخ الدعائم ادركه الشعب الفرنسي بوطنيته ووعيه . وكان من بوادره العظيمة ذلك الموقف الرائع الذي يقفه اليوم امام تجار العبيد الذين يريدون تسخير العمال الفرنسيين لخدمة عدوهم وانتاج

الاسلحة التي توجه الى صدورهم .

وقد نشرت مجلة « لايف » الاميركية في احد اعدادها الاخيرة ، تفصيلات هامة عن نشاط المقاومة السرية في فرنسا ، ادلى بها قائد من قواد هذه الحركة وصل حديثاً الى واشنطون وتسمى فيها باسم دوران . وقد استطاع دوران الحصول على تقارير هامة قدمتها الشرطة الالمانية لقيادتها ، كما حصل على ثبت بأسماء المعتقلين في ٢٠ مدينة من كبار المدن الفرنسية ، وهو يعتقد بان هناك اربعماية الف فرنسي معتقلين بتهم سياسية منهم مائة وعشرون الف سجين في المنطقة غير المحتلة .

واشار دوران الى ان اعمال التخريب وتهريب المؤن التي يلح الالمان في طلبها ، اصبحت واجباً وطنياً نظمت تنفيذه منظمات سرية عديدة ، لكن نتائج اعمالها لا تزال مجهولة . وقد اكد ان المنظمة الرئيسية التي تعمل في الخفاء تضم ما يزيد عن خمسين الف عضو مسلح حولهم عدة ملايين من المؤيدين .وقال ان الصحف السرية تطبع مائتي الف نسخة لا يقل قراؤها عن العشرين مليون فرنسي . ونوه بان العمال والفلاحين والطلاب والمعلمين ، وجميع المثقفين ورجال الدين ، وابناء الطبقات الوسطى ، وبالتالي اكثرية الشعب الفرنسي ، يؤيدون هذه الجمعيات الباسلة ويناصرونها ويمدونها بالعون الادبي والمادي . وتطبع الاوساط الكاثوليكية جريدتها السرية الخاصة « شهادة مسيحية » فتهاجم فيها النازيين وتفضح اكاذيب الحكومة الفيشية .

ان النضال الوطني الذي تعلنه الجماهير الشعبية الفرنسية ،

يتسع يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة في المنطقة المحتلة وغير المحتلة على السواء. وليست الانباء التي تتسرب باستمرار عن المظاهرات الصاخبة التي يقوم بها العمال والفلاحون والمثقفون، والاصطدام الدامي بينهم وبين النازيين او صنائع النازيين، الا دليلاً صارخاً على ان الانتظار قد اصبح عسيراً جداً على اولئك الاحرار.

لكن ماذا ينتظر الوطنيون الفرنسيون؟

لقد اجاب اندره فيليب على هذا السؤال، في حديث افضى به الى الصحافة الانكليزية على اثر هربه من وطنه، فقال ان فرنسا تنتظر الجبهة الثانية.

وكلما تأخرت هذه الجبهة طال عذاب الفرنسيين، وطال عذاب الشعوب الاوروبية، وطال عذاب العالم، فالشعب الفرنسي وشعوب العالم كلها، تطالب الان بفتح الجبهة الثانية. ويوم يضع الحلفاء اقدامهم في القارة، ينهض في ارض فرنسا، وفي اوروبا باسرها، جيش لجب حاشد من الرجال والنساء، يعبّد الطريق امام الحلفاء، ويستعيد بجهاده الشخصي وجهاد رفاقه في السلاح، حرية اوطانه وحرية العالم.

١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢

بحّارة طولون

لما ذاع ، ذلك الصباح ، نبأ انتحار القطع الحربية الراسية في ميناء طولون ، اكبر العالم تلك التضحية العظمى ، وتوجه الناس بقلوبهم شطر البحارة الذين استشهدوا مع مراكبهم فكفّروا بموتهم عن اخطاء كبار القادة ، شطر اولئك الابطال الذين لم يبذلوا حياتهم في نشوة النضال واحتدام العراك بل في ساعة من ساعات الوعي الهادىء العميق ادركوا فيها واجبهم الوطني وادوه خير اداء .

في ١١ تشرين الثاني مزق هتلر المعاهدة الالمانية الفرنسية بالسيف الذي املاها ، واخذت برلين عن فيشي العبء الذي ناءت به وعجزت عنه : عبء اخضاع الشعب الفرنسي . واراد الدهاء الناري ان يدغدغ الكبرياء العسكرية الفرنسية ريثما يعد العدة للاستيلاء على الاسطول فجعل من طولون واحة حرة في صحراء العبودية .

وفي ٢٧ تشرين الثاني ، شعر بحارة طولون بحركات عسكرية مريبة عند مداخل المدينة ، فتنادوا وتوافوا الى ظهور مراكبهم. ونامت الدنيا يومذاك لكن طولون لم تنم ، ولبثت متحفزة لأمر عظيم . وعند انتصاف الليل ، لما أزّت الطائرات ، وتدفقت الدبابات ، وبسط الالمان ايديهم للاستيلاء على الغنيمة التي طالما تاقوا اليها وعللوا انفسهم بها — اقدم ابناء البحر على تضحيتهم التي لا يضاهيها اتساعاً وعمقاً سوى القبر الذي انحدروا اليه : تلك صورة لم يشهدها غير الظلام فبقيت جزءاً منه ، لكن ظلام تلك الليلة ، كان كسواد العين الكحلاء جمالا ونوراً !

ولما لاح الصبح ، وسالت دماء الشفق على جوانب الافق ، كانت المراكب المضطجعة في اليم تصعّد أنفاسها الاخيرة ، والسنة النيران التي لم يخمد ضرامها في مستودعات الذخيرة تتلوى كمشاعل المآتم . لقد ابتلع البحر في بضع ساعات ملايين من ساعات العمل . لقد فقدت فرنسا اسطولاً كبيراً لكنها استعادت شرفها واستعادت أملها بالانتصار ، لان يوم ٢٧ تشرين الثاني لم يكن فقط خاتمة الاخطاء والمحاولات التي ارادت ان توجه فرنسا في غير وجهتها ، بل هو ايضاً اول خطوة في طريق الخلاص يخطوها الشعب الذي دك الباستيل واسقط جبابرة الطغاة ، والذي اثبت مرة اخرى انه لا يمكن ان يخضع للنير الذي فرض عليه وزُين له ، وسيظل ماضياً على سنته موفياً على قصده حتى يأتي يوم يضع عنه إصره والاغلال ، وانه ليوم آت لا ريب فيه .

ليس يعدل تضحية البحار الفرنسي في عظيم فائدتها ورفيع معناها ، الا تضحية العامل الروسي الذي يهدم ما بناه في خمس وعشرين سنة لئلا يقع في يد اللص المغير . ان ذلك البحار وهذا العامل أخوان في الالم ورفيقان في الجهاد . وان ايديهما لأشبه بسيف أخيل الذي كان يشفي طعنة سنانه . فليت شعري ماذا يقول الناعبون الذين يهدمون وهم يزعمون انهم يبنون ؟ ماذا يقول المارشال الفرنسي مثلاً في البحار الفرنسي الذي آثر الموت على حياة الذل ؟ ألا لشد ما تغري المقارنة بين هذين الضدين : حي أمات امة وميت أحياها .

لكن المارشال العجوز ، الفرنسي سابقاً كما يقول ايليا اهرنبورغ ، لا يحفل بهذا ، ولا يندى جبينه عاراً اذ يقول له هتلر وكأنه يشتمه : انا واثق من انك لم تشترك في اي حركة من حركات المقاومة !

ان بيتان وشركاءه لمسؤولون أمام التاريخ عن الاسطول ، وعن الشهداء الذين ضحوا بانفسهم معه ، لكن المسؤولية المباشرة تقع على عاتق خائن آخر ، يرتفع صوته اليوم باعجوبة .. من جبهة نسميها « جبهة الحرية » ، هو دارلان الذي القى بالاسطول يوم المعاهدة المزيفة ، الى الشواطىء الفرنسية ، فقطع عليه بذلك سبيل الالتحاق بالقوى الفرنسية المناضلة .

واليوم تشهد طولون اول بادرة من بوادر الثورة التي ستحرر فرنسا ممن احتلوها وممن خانوها ، وفي طليعتهم ذلك الاميرال الذي اضطر الاسطول بتصرفه الفاضح ، لسلوك هذا السبيل

وملاقاة هذا المصير .

وفيما المدينة المفجوعة ترنو الى حطام الجواري التي كانت في البحر كالاعلام ، تسمع من وراء البحار صوت قائد جديد يلخص المأساة ويستخلص العبرة :

« ان اسطول طولون ، اسطول فرنسا ، قد تلاشى . فحين اوشكت المراكب ان تقع في يد العدو ، جاش الوعي القومي في نفوس الرّكْب ، وتمزق امام عيون القواد والضباط والبحارة ، في لحظة واحدة ، ذلك الحجاب الكثيف الذي ظل الكذب ينصبه امام العيون ، منذ حزيران ١٩٤٠ ، فأدركوا في لحظة واحدة ، أي مصير صاروا اليه .

ولم يجد اولئك البحارة الا مخرجاً واحداً ، فدمروا بايديهم العمارة الفرنسية ، لكي يجنبوا الوطن ، على الاقل ، ما ينتابه من عار اذا رأى مراكبه تصبح مراكب عدوة .

لقد سمعت فرنسا مدافع طولون ، ودوي الانفجارات فيها ، وطلقات البندقيات اليائسة ، فسرت فيها رعشة الالم ، والرثاء ، والغضب . وان هذه الكارثة التي تضاف الى جميع كوارثها ، لتكمل نهضتها ووحدتها — اجل وحدتها — في الارادة الجامعة التي تحدوها لان تمحو ، بالانتصار ، جميع النتائج القاسية التي ادت اليها النكبة والاستسلام لها :

فالى الانتصار ، اذ ليس من طريق آخر ، ولم يكن هناك ابداً غير هذه الطريق » .

٥ كانون الاول سنة ١٩٤٢

طريقُ الحريّة

منذ عام وبعض عام .. وقد انبسط على الدنيا ظلام عميق كالبحر العميق ، فتفرق الناس ايدي سبا : منهم من طلب الحق في دار الباطل او جادل بالباطل ليدحض الحق ، ومنهم من لبث في غيهب الحيرة لا يدري على اي نهج يسير ، ومنهم من جعل يرقب الاحداث ليكون على المغلوب مع الغالب ! في تلك العاصفة من تشعب السبل واضطراب الآراء ، شققنا نحن طريقنا السوي واعلنا رأينا الواضح : طريقاً سلكناه منذ سنين ، ورأياً خبرناه وعُرفنا به ، لم تفتنا عنهما المفاتن ، ولم يضلنا المضلون ، ولم تأخذنا حيرة او رهبة ، لاننا كنا نعمل لمصلحة الوطن وحدها فلا نستبيح الترخص في حقه والتفريط في امانيه ، وكان غيرنا يعمل لمصلحته الشخصية وحدها فيبيح لنفسه ان يجعل من قضية الوطن ألهية يمثل دوره فيها عندما يبتغي وكما يشاء ، غير متحرّج ان يكون بمعزل عن امته اذا ألمّ بها

خطر ، ولا متأثم ان يحارب المجموع اذا كانت مصلحته الفردية تنافي المصلحة العامة .

كانت مصلحة بلادنا تقضي بان تتألف فيها جماعة واعية تحارب ضلالات العنصرية والانانية والاستثمار ، وتقف للنازية ودعاتها بالمرصاد ، وتحمي حقوق الشعب من المحتكرين ، وتحمل السلاح اذا اقتضى حمل السلاح ، للدفاع عن حاضرنا ومستقبلنا ، عن تراثنا وامانينا ، عن قبور آبائنا وملاعب اطفالنا ، عن الكتاب العربي والحرف العربي ، عن الرغيف وحبة الزيتون — من قطاع الطرق حثالات برلين وروما الذين رباهم الطاغيتان كما تربى الوحوش على البطش والغدر ، واطلقاهم في الدنيا يرهقونها ظلماً وجوراً ، ويعيثون فيها فساداً وكفراً ، ويفرضون عليها طغياناً يرتجف له قلب الارض ..

كان من مصلحة بلادنا ان تتألف فيها مثل هذه الجماعة المناضلة للسهر على حقوق امتنا خلال هذه الحرب واعلان موقفنا الصريح منها ، لان الحياد الذي اعتصم به اكثر المتزعمين ضرب من الانتحار ، والانتحار اسوأ ما يكون خلاصاً وملاذاً ، لانه اقرار بالعجز واستخذاء امام الغاصب . ولم يقم في سوريا ولبنان من يمحو تلك الوصمة عن وطننا وينهض بالواجب القومي العظيم ، غير عصبتنا ، عصبة مكافحة النازية والفاشستية ، وغير اولئك السابقين الذين كانوا قد خرجوا حديثاً من السجون والمخابىء ليستأنفوا النضال الذي سجنوا وشردوا من اجله : خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ورشاد عيسى ،

ورفاقهم ، قواد اكبر حركة وطنية واعية في البلاد العربية .

كانت الجيوش الالمانية تزحف انذاك على الاتحاد السوفياتي ، بعد ان جعلت من اوروبا سجنا موصداً على فرائس الظلم . وكانت اليابان حديثة عهد بالحرب وهي تنتقل من انتصار الى آخر . وكان اليأس يضغط بهوله على القلوب الضعيفة فلا يبقي لها قبساً من الرجاء . لكننا لم نقنط ، ولم نفتر لحظة عن النضال بل ازددنا فيه اندفاعاً .

وكان يحدونا الى هذا النضال ثلاثة دوافع اساسية : اولها اننا ننكر قول من يزعم انه خير للمرء ان يعيش عبداً من ان يموت ، لان العبد في رأينا لا يعيش بل يتعفن ، وينحط ، ويموت موتا بطيئاً ذليلا . وثانيها اننا كنا نرى انكسار النازية امراً ممكناً اذا لاقت مقاومة جدية واتحدت الشعوب الديموقراطية اتحاداً وثيقاً شريفاً في محاربتها . وثالثها اننا نأمل ان تكون هذه الحرب التي اضرمت وقودها النزعات الاستثمارية والمطامع الاستعمارية سبيلا الى تطهير العالم الى الابد من هذه النزعات والمطامع فيكون الانتصار على النازية انتصاراً لامانينا القومية والحريات التي نطمح اليها .

ومن ثم كان نضالنا يشتد كلما اقترب الخطر النازي من بلادنا ، ويوم احتل روميل مدينة طبرق ودنا من العلمين مهدداً الاسكندرية ، وبدأ بعض الناس يخالون ان الالمان سيهبطون بلادنا بين ليلة وضحاها ، وطفق آخرون يعدون حقائبهم للهرب من وجه الوحوش بدلا من ان يفكروا بقتلها ،اقامت

عصبتنا اكبر اجتماع شعبي في دمشق ، واوضحنا لابناء الشام البواسل واجبهم الوطني من الخطر الذي احدق ببلادنا .

هكذا شققنا طريقنا في زحمة الحياة وقد غامت آفاقها بالسحاب الثقيل ، وتناوحت على جانبيها الصواعق الهوج . ونهجنا في سيرنا الى الامام ، فلم يجرأ احد ان يسد الطريق في وجه الوطنية الصحيحة ، لم يجرأ احد ان يسد الطريق في وجهنا لان الجميع كانوا يعرفون معرفة اليقين اننا لا ننشد سوى اماني الشعوب العربية ولا نهدف لغيرها ، فنحن سلم لمن يسالمها وحرب لمن يحاربها وان كان ابعد الناس عنا او اقربهم الينا .

وسارت قافلتنا مهدية هادية ، والطريق تتسع في كل ساعة ، والقافلة تتعاظم في كل يوم ، لاننا في كل يوم وفي كل ساعة كنا نلتقي امثالنا من المثقفين والعمال وصغار التجار الذين لم يقتل شعورهم القومي وهم جبان ، ولم تخنق وجدانهم الاجتماعي اغراض شخصية ، فعرفوا ان وطنهم هو هذه الكثرة الكثيرة من الشعب المنتج العامل ، وايقنوا ان عدوهم هو كل من يهدد هذا الشعب وحقوقه ومطامحه ، وآمنوا بان واجبهم الاول هو الدفاع عن هذا الشعب واعادته الى مكانه من ثبت الشرف وتاريخ البطولة . لقد كانت طريقنا تتوعر حيناً وتسهل حيناً ، لكنها ظلت في صعود دائم ، وفي اشراق دائم ، وفي اتساع دائم ، تنهج قدماً نحو المستقبل وترتفع دراكاً نحو الشمس .

وبدأ التاريخ عند اعتاب موسكو صفحة جديدة . فاذا الطاغية الذي حسب انه سيدخل عاصمة الحق والنور في ابهة وحفل عظيم يرتد عنها خاسئاً مدحوراً . وسباستوبول الصغيرة تصفع وجه الفاتح الكبير . وهجوم الربيع ينقلب الى هزيمة الخريف . وستالينغراد تدخل في حساب روميل وتستنزف القوى التي كان يعدها لمهاجمة الاسكندرية . واذا بالجيش الاحمر ينقضّ كالغضب الاحمر ، فيطحن العدو طحن الحصيد ويعلّم الدنيا كيف تكون الوطنية الصحيحة .

وتنفس الامل في العالم . وقوي اليقين بضرورة مقاومة المحور وامكان التغلب عليه . فاذا الشعوب الاوربية التي كانت تعيش تحت القبضة النازية المهددة تصبح قبضة تهدد النازية . وجيوش الحلفاء في افريقيا تتحول من الدفاع الى الهجوم فتحطم آخر امل لهتلر في هذه البقعة من الارض ، وتهيء سبيلاً لضربه في القارة . وبحارة طولون يقومون بمأثرتهم الوطنية العظيمة مفضلين الموت في القرار الرهيب على الاستسلام المخزي . واذا الشرق والغرب يتحفزان للوثوب .

وعاد الغرب فتطلعوا الى المستقبل ، وقد انجلت عنه الغيوم ، فايقنوا بان هذا المستقبل يتوقف على انتصار الديموقراطية ، وقوي ايمانهم بافضلية المبادىء الديموقراطية وشعورهم بضرورة توسيع الحريات الديموقراطية في بلادهم . اما نظام هتلر فقلّ اليوم من يفكر فيه ويستوحيه : ان اطلال اوروبا تصفه اصدق وصف ، واوروبا تجيش بين هاتيك الاطلال كمرجل الحقد ، ولا

بد لمرجل الحقد من الانفجار .

وهكذا نستقبل هذا العام في جو ابعث على الامل وادعى الى التفاؤل :

العراق تعلن الحرب رسمياً على المحور فيكون لصنيعها صدى محبذ لدى جميع العرب . وسوريا ولبنان يقبلان على عهد دستوري تزداد فيه واجباتنا الوطنية ومسؤولياتنا التاريخية . والبلاد العربية كلها تحشد قواها الحرة لمحاربة النازية والرجعية والصهيونية وتستعد لغد حر تتمتع فيه بامانيها القومية . والمتربصون يحطمون اغلال التربص كما تتحطم الاقفال السحرية عن الابواب المرصودة في حكايات الجن . والجميع ينضمون ، واحداً بعد آخر ، الى قافلة الحرية ، الا اولئك الذين لم يجدوا حرجاً في الخيانة ولم يجدوا سبيلاً الى النكوص ، فهؤلاء وحدهم ، وهم لحسن الحظ اقل من القليل ، يخبيء واحدهم وجهه من العار .

اما قافلة الحرية فهي تتعاظم وتسير . واما طريق الحرية فهي تتسع وترتفع . ويا لها من طريق مترامية اين منها المبتدا والمنتهى ؟ لقد مرت مرور المستنكر بفرصوفيا وباريس ، ثم مرت مرور الظافر بكل مدينة وقرية من مدن الاتحاد السوفياتي وقراه ، ووصلت موسكو وسباستوبول وستالينغراد بطولون وطرابلس الغرب وبغداد ، وقد تتجه في العام المقبل شطر روما وطوكيو وتمر بغابة الوحوش التي تسمى برلين .

٢ كانون الثاني سنة ١٩٤٣

عيد الجيش الأحمر

يقول ابو فراس الحمداني :

لئن خلق الانام لحسو كأس
ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان الا
لمجد او لبأس أو لجود

وهذه حلب ، عاصمة الحمدانيين (١) ، تثبت صدق شاعرنا مرة اخرى . هذه حلب تشارك الدنيا احتفالها بعيد الجيش الاحمر : جيش المجد والبأس والجود . ومن حق هذه المدينة العربية المناضلة ان تحتفل بهذا العيد العظيم كغيرها واكثر من غيرها ، فهي اخت لستالينغراد وموسكو ولينينغراد ، عانت في تاريخها الطويل بعض ما عانين من عذاب ، وطمحت الى ما ادركن من نعيم ، وهي اليوم تنظر اليهن لتسير سيرتهن في الجهاد

(١) القي هذا الخطاب بحلب في احتفالها بعيد الجيش الاحمر سنة ١٩٤٣

وتنتصر انتصارهن على قوى العبودية . فاحتفال حلب العربية بعيد الجيش الاحمر ليس فقط تقديراً منها لبطولته الفريدة ووطنيته الصادقة ، وليس فقط اعترافاً بجميله لانه انقذها من اهوال الحرب ووصمة الاستعمار النازي . بل هو ايضاً احتفال بما تصبو اليه من حقوق اجتماعية وامانى قومية ، هو احتفال بنضالها الطويل المقدس من اجل استقلال العرب وحريتهم وتراثهم .

لقد كان الامير حمدان رأس الاسرة الحمدانية ، أول الثائرين على تفسخ الدولة العباسية وتدخل الاعاجم في شؤونها ، وانفراط عقدها الى امارات ودويلات واقطاعات . وكان حفيده سيف الدولة ، امير حلب ، بطل الدفاع عن العروبة والاسلام ، يوم وقف مع ابناء هذه المدينة ، في مفترق التاريخ ، مدافعاً عن البلاد العربية ذائداً عن تراثها الفكري وكيانها القومي . ولما حشد القائد البيزنطي نيسفور جيوشه اللجبة ، وهاجم سوريا الشمالية ، واستطاع ان يطوق حلب ، شهد العالم يومذاك عجباً .. شهد دفاعاً ضارياً معجزاً . كانت الجيوش البيزنطية تفتح المنافذ في اسوار هذه المدينة ، فاذا كان الليل اجتمع اهلها لبناء الثغرات فلا يصبحون الا وقد فرغوا منها . غير ان قوة حلب الدفاعية كانت اضعف من ان تصمد لذلك الحصار طويلاً ، فاعتصم عدد كبير من الاهالي بالقلعة وتدفق البيزنطيون على المدينة ينهبون الارزاق ويهتكون الاعراض ويقتلون الاطفال ويحرقون الكتب ويخربون المساجد . لكن القلعة ظلت متينة ابداً ، حتى يئس نيسفور من افتتاحها ، وخشي ان يعود سيف الدولة الى مهاجمته

في قلب عاصمته فانسحب منها . وحلب تحتفل اليوم بأبطال ستالينغراد ولينينغراد وموسكو ومئات المدن السوفياتية التي صمدت في وجه المستعمرين الالمان وقهرتهم ، فكأنها تحتفل بأبطال تاريخها وتاريخ العرب ، الذين عززوا تقاليد الفروسية والحرية في العالم . وهي تهتف للجيش الاحمر الذي انقذها من نيسفور آخر يعيد سيرة الظلم فيها ، فكأنها تهتف لجيش سيف الدولة وحماة القلعة الشهباء ، فبفضل الجيش الاحمر المدافع عن السلام وحريات الشعوب لم تطأ ارجل الوحش النازي أرض هذه المدينة وغيرها من المدن العربية ، وظلت سالمة ، خيراتها موفورة ، واعراضها مصونة ، وكتبها تقرأ بشغف ، وأطفالها يبتسمون للحياة .

وفي ظلمة العهد الحميدي تمخضت هذه المدينة بمفكر عربي مجاهد آلمه ان العرب الذين كان واحدهم ينادي امير المؤمنين : يا عمر ! ويهتف به : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف — قد صاروا الى عهد يُقتل الطفل فيه بحجر امه فلا تجرأ ان تبكي عليه . ذلك هو عبد الرحمن الكواكبي الذي دوى صوته من الشهباء الى ام القرى ، بكلمات حق لم تذهب مع الريح بل ذهبت وستذهب بالاوتاد ، لانها زرعت في تربتنا بذور الثورة العربية والبعث العربي . واحتفال حلب بعيد الجيش الاحمر الذي حطم انيار العبودية وما يزال يحطمها ، هو ايضاً احتفال بالثورة العربية وبالبعث العربي ، هو احتفال بالمفكرين العرب من امثال عبد الرحمن الكواكبي الذي صرخ في وجه الاستبداد جملة تلخص معنى احتفالنا بانتصار الاتحاد السوفياتي ،

وما ننشده من نضالنا ضد النازية – صرخة بسيطة عميقة يرددها كل حر في الدنيا ويخفق لها كل قلب كبير ، الا وهي : ليسقط الاستبـداد .

لقد خطب غوبلز منذ ايام في برلين ، محـذراً العالم من الخطر الاحمر ، منذراً اياه بالفناء تحت اقدام البلاشفة، متوسلاً اليه ان يبادر الى توقيف سيلهم الجارف . فكان جواب العالم على خطاب غوبلز انه احتفل من اقصاه الى اقصاه بعيد الجيش الاحمر ، مثبتاً بذلك ان عهد الدعايات والاكاذيب قد ولى ، وان الغشاوة التي حجبت النظام السوفياتي بالامس عن بصائر الناس قد تمزقت اليوم ، فظهر بحقيقته الرائعة المنيرة: نبراساً هادياً ، وعالماً متآخياً ، ومعقلاً راسخاً للحرية . وها هي حلب تثبت انها ليست اقل وعياً ووفاء وطموحاً من نيويورك وبكين ولندن ، فتشارك مـدن الشرق والغرب احتفالها بهذا العيد العظيم من اعياد الحرية .

ان اول صفات الجيش الاحمر ومزاياه انه ابن النظـام السوفياتي الذي انتقـل بالبلاد السوفياتية من عهد الى عهـد ، وسجل ولادة عصر جديد في تاريخ البشرية . لقد رفع هذا العهد وجه الانسان من التراب بجعله سيداً لعمله لا عبداً له . فاذا بالانسان الجديد يخلق عالماً جديداً قوامه الفكر الحر والعمل المبدع والفرح المنير . وفيما الاقطار المتطورة الصناعة تعاني الازمات المستحكمة ، وتتخبط في مشاكلها الاقتصادية وما يتفرع عنها من مشاكل اجتماعية وسياسية ، كان هذا العـالم

الجديد يصعد بخطى الجبابرة من مستنقعات الذل والفقر والجهل الى القمم التي حلمت بها الانسانية في تاريخها الطويل . لقد حطم هذا العالم القيود التي تعوق غيره عن النمو وتؤخر غيره عن مواصلة السير ، فبلغ في خمسة وعشرين عاماً مرحلة لا تسامى من مراحل التطور فاق فيها دولا سبقته الى ملابسة الحضارة بقرون عديدة . ولم يكن بلوغ هذه المرحلة في هذا الزمن القصير ، معجزة غريبة بل نتيجة طبيعية لتحرير الانسان من عبودية المادة وجعل مرافق الحياة ومكتشفات العلم واسباب العمل والثقافة والراحة ، في متناول جميع الناس وجميع الشعوب.

كانت روسيا القيصرية من اشد البلاد انحطاطاً . كانت بلاد العمال الجائعين والفلاحين البائسين ، بلاد الزراعة المتأخرة والحصاد الهزيل ، بلاد الطواعين والامراض السارية ، بلاد البغاء والجريمة والجنون ، بلاد الاحقاد القومية والمذابح الدينية . وكانت الحكومة القيصرية تعذب الامم ، وتمتص دماء الشعوب ، وتثير بعضها على بعض ، وتقذف بها في حروب مستمرة خاسرة . فانقذ النظام السوفياتي تلك الشعوب من القيصرية وحروبها ودسائسها ومظالمها ، واعتقها من نير الامراء والخانات الذين كانوا يتوارثونها ويتقاسمونها ويبيعونها ، وعزز قواها المنتجة فاصبحت تنتج لنفسها كل ما تحتاج اليه ، وحوّل المحراث والمجرفة الى تركتورات وآلات زراعية ، جعل من المنتجين اسياد البلاد ، ورفع المستوى الثقافي بين الجماهير ، ونشر الاخاء والمساواة بين الشعوب : « ما ترى في خلق

الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

سئل فلاح في العهد القيصري : « ماذا تصنع اذا اصبحت قيصراً ؟ » فأجاب : « آكل خبزاً ! » . اما الان فان الخبز آخر ما يفكر فيه الفلاح السوفياتي . ان فلاح اليوم الذي يعمل بطريقة راقية ، يفكر ايضاً بطريقة راقية ، ويريد ان يعيش بطريقة راقية .

وقد روى صحافي اجنبي زار الاتحاد السوفياتي انه التقى طفلاً في قرية بولتافا في العاشرة من عمره ، فسأله ماذا يريد أن يكون فأجابه الطفل : « اريد ان اصبح مهندساً » فقال الصحافي : « ولكن ، هل لديك المال الكافي لذلك ؟ » فدهش الغلام ، لانه لم يفهم كيف ان طالب العلم يجب ان ينفق في سبيل بغيته مالا . ولما ايقن بأن محدثه جاد لا هازل ، وادرك ان الوضع الاقتصادي في بلاده يختلف عن الأوضاع الاقتصادية في البلاد الاخرى ، اجاب محدثه بقوله : « ما اقسى الحياة عندكم .. انه لمن الفظاعة ان لا يستطيع امرؤ مواصلة دراسته حسب مواهبه ! »

تلك هي الآفاق الواسعة التي فتحها النظام السوفياتي أمام الانسان . لقد خلق هذا النظام شروطاً لم يعرف لها مثيل لتوفير الرخاء المادي والتقدم الفكري للانسان . والانسان في الاتحاد السوفياتي هو الهدف الاسمى الذي يُضحى من أجله بكل ثمين . ليس الانسان هناك مزبلة التاريخ كما يسميه الفاشستيون ، وليست الجماهير عبيداً للكابورال النازي . ليس الانسان في

وطن ستالين آلة مسخرة لبناء الاهرامات ، او شيئاً ملحقاً بالارض او بالآلة ، بل هو المبدع الذي يبني مصيره ويصنع تاريخه كما يريد . ان الانسان قد تبوأ في الاتحاد السوفياتي ، لاول مرة في التاريخ ، المكان اللائق بالانسان .

وفي عائلة الشعوب السوفياتية المتحدة ، نال كل شعب ما ينشده من استقلال وحرية وبعث لتقاليده القومية . وساعدت الحكومة السوفياتية الشعوب المتأخرة على احياء تاريخها وثقافتها ، وعلى الالتحاق بموكب الامم التي سبقتها في مضمار الصناعة والتقدم الاجتماعي ، فاذا الصحاري المحرقة المترامية في اسيا الوسطى تتحول بفضل العلم والتعاون الى واحات وجنائن . واذا الشعوب الشرقية التي سامتها القيصرية انواع العذاب ، فعاشت تحت نيرها في ظلام من الجهل والفقر ، قد اتسع النظام السوفياتي لحرياتها القومية والمدنية والاجتماعية ، ووسّع امامها مدى هذه الحريات ، ووفر لها وسائل تحقيقها . فاصبحت تفوق الشعوب الاوربية حضارة ورقياً .

وكل هذا .. كل ما حققه الاتحاد السوفياتي في مدى خمسة وعشرين عاماً لم يكن نهاية لما يمكن ان يتحقق ، بل كان بداية لما يجب تحقيقه لكي يزداد فرح الانسان بالحياة ، ولكي تغدو الحياة نفسها خصبة كأشد ما يكون الخصب ، مليئة كأكمل ما يكون الامتلاء .

هكذا كانت تعيش الشعوب السوفياتية وقد اطمأنت في بلادها وسكن بعضها الى بعض ، هكذا كان يعيش المواطنون

السوفياتيون في حرية كاملة ورخاء شامل ، اذ فاجأهم الطاغية بحربه الغادرة واقتحم بلادهم ليعيث فيها فساداً ويعيدهم الى عيش القطيع . ومن اجل هذا يحب السوفياتيون وطنهم ويدافعون عنه بابلغ ما تدل عليه كلمة الدفاع الوطني من معنى . انهم لا يحبون وطنهم فقط لانه وطن رحيب تغسل شواطئه خمسة بحور ، او لانه حافل بالجبال العالية والمناجم الغنية والحقول الواسعة والغابات العذارى والانهار الزاخرة بالحياة . لكنهم يحبونه ايضاً وخصوصاً ، لان مطامح الانسان في هذا الوطن هي مطامح رحيبة طليقة لا تحدها حدود . انهم يحبونه لانه وطن سوفياتي ، ولان بحاره وانهاره وجباله ووديانه وحقوله ومناجمه وغاباته هي سوفياتية ايضاً ، اي انها لهم جميعاً.

من اجل هذا نرى الجندي الاحمر يقول في « نشيد الوطن » :

« وطن يزخر بالحقول والغابات والانهار
ذلك هو وطني الفريد
فاين في العالم ارض
يعيش فيها الناس احراراً ؟
من موسكو الى تخوم البلاد ،
يجوب الانسان
ذلك السيد الحقيقي لتلك الكنوز
هذه القارة غير المتناهية
الزاخرة بحياة لم يُعرف لها مثيل . »

من اجل هذا تغني الشعوب السوفياتية الشرقية جمال بلادها

على هذا الغرار الذي يغنيه شعب التركمان اذ يقول :

« ان ارضنا قد ازهرت
وأصبح وطننا كالوردة
فهل للقوة ان تنمو بين ايدينا
ليصبح وطننا كالبستان .
لن يعيش شعبنا بعد الان في السجون
لن يعاني ابداً العذاب الذي عاناه في ليل الماضي
ان حكمة ستالين قد دلتنا على الطريق
لما هزم الرعد في ثورة تشرين .
ان حلم العصور
قد اصبح حقيقة يا صديقنا ستالين
فمن وطن التركمان
نحن نحييك ، يا مفخرة العصور ! »

ان هذا الحلم الذي تمخضت به الانسانية في تاريخها الطويل ، ان هذه القصة الحلوة عن عالم أحسن ، ان هذا الامل الكبير ، لم يبق خيالا نطالعه في كتب الفارابي وتوماس مور وسان سيمون ، بل اصبح حقيقة واقعة نلمسها في حياة ١٨٠ مليوناً من البشر أظهروا للعالم كله قوة النظام الذي ناضلوا من اجله ، وخلقوه بلحمهم ودمهم ، في آلام النصر وافراحه .

ان المواطنين السوفيات ليحبون وطنهم لانه المنارة الهادية والهداية المنيرة في غياهب الظلمات التي نشرتها النازية على الدنيا . انهم يحبون هذا الوطن الفريد المتعدد القوميات لانهم ساهموا

كلهم في خلقها وبعثها كما ساهمت هي في بناء الوطن الكبير. وهم يحبونه أخيراً لانهم لا يبغضون سواه، ولان لينين وستالين قد جعلا منه معقلاً للحرية، وجعلا كل حركة من حركاته درساً جديداً للعالم.

من هذه الوطنية السوفياتية ولدت البطولة الرائعة التي ادهشت الدنيا. ومن هذا الحب المغرق للسلام ولدت ملاحم الجيش الاحمر التي كانت كلمة المعجزة اقل ما توصف بها. فالجيش الاحمر هو الشعب السوفياتي الذي انعتق من نير العبودية ولن يخضع له مرة اخرى. هو الفلاح الذي يحارب في حقله، والعامل الذي يحارب في مصنعه، والعالم الذي يحارب في مختبره، والمرأة التي تحارب في البيت والمصنع والثكنة. هو فوروشيلوف وتيموشنكو ورودنتسيف، وهو ايضاً اهرنبورغ وتولستوي وشولوخوف. الجيش الاحمر هو الرجل الذي يوجه خطى الاتحاد السوفياتي نحو الظفر، الرجل الذي فاقت رجولته كل رجولة، وسمت حكمته على كل حكمة، وعلت قيادته على كل قيادة: الرفيق ستالين.

لقد حشد هتلر لمحاربة روسيا قواه كلها، وحسب انه لم يدع شيئاً دون ان يعد له العدة الوافية، لكنه نسي امراً واحداً: نسي ان وراء الجيش الاحمر نظاماً سوفياتياً. لقد اخطأ هتلر في تقدير القوى المادية والروحية التي يتمتع بها الاتحاد السوفياتي، فكان حصاده ملايين الصلبان الخشبية التي يرقد تحتها جنود لم يفتتحوا من الارض السوفياتية الا المكان

الجدير بهم ، الا حفراً يموتون فيها .

اراد هتلر ان يكون عام ١٩٤٢ عام انتصاره في روسيا فشهد في هذا العام غروب آخر آماله في الانتصار . لقد تحطمت القوى الالمانية المختارة على صخرة ستالينغراد الخالدة ، فاذا بالجنرال فون دريبر يبكي في معتقله كالاطفال ، مردداً : اي انكسار ، اي انكسار ! اما فون باولوس الذي عقد هتلر عليه آماله الاخيرة ، فقد نال المارشالية في كهف مظلم من كهوف ستالينغراد لاذ به بعد ان افنى جيوشه كلها ، وفي ذلك الكهف المظلم نفسه ، استسلم قائد حملة ستالينغراد الى حماة مدينة الفولاذ .

لما اعلنت المانيا الحداد بعد هزيمتها في ستالينغراد ، ضحكت الدنيا باسرها . ذلك لان وطن ستالين هو القلب النابض ، والقوة الحاسمة ، في جبهة النضال ضد النازية والحرب والاستعمار ، ولان الانتصارات السوفياتية لا تعود بالخير على الوطن السوفياتي وحده بل على الدنيا بأسرها . ان احرار العالم ليرون ويعرفون ان المصانع والمزارع والمعاهد السوفياتية ، وان الجيش الاحمر وجميع القوى السوفياتية ، ليست للاتحاد السوفياتي وحده بل هي للدنيا بأسرها ، هي لجميع الاحرار والطامحين الى الحرية ، افراداً وشعوباً ، في مشرق الارض ومغربها .

٢٣ شباط سنة ١٩٤٣

على أبواب أوربا

انتهت بانتهاء معركة تونس صفحة من صفحات هذه الحرب ، وسيبدأ التاريخ صفحة جديدة من نضال الشعوب ضد الطغيان الهتلري ، فقريباً يقع سيف ديموقليس على الكتلة المحورية في معقلها في اوربا ، وفي عقر دارها !

وقد كان انهزام قوات المحور في افريقيا الشمالية ، انهزاماً للستراتيجية المحورية بعد الهزائم الشنعاء التي حاقت بها امام جدران ستالينغراد وعلى سفوح جبال القفقاس ، واثبت مرة اخرى ان « الجيوش التي لا تُغلب » ليست قوية الا بضعف الدول التي تحاربها ، وانها اذا لاقت مقاومة جدية حازمة لا تتخلى فقط عن مشاريعها الهجومية بل تتقهقر ايضاً الى وراء .. وهذه جيوش المحور التي هاجمت مصر ، لم ترتد عنها وحدها بل انسحبت من جميع مراكزها في المستعمرات الايطالية ، ولم تفن وحدها بل فني معها جميع اللصوص الفاشيست الذين جعلوا من البلاد العربية

هناك بؤرة لعبوديتهم ومسرحاً لجرائمهم ، وبذلك كان انتصار الحلفاء مزدوجاً ، فقد ابعدوا الخطر الهتلري عن مصر والشرق العربي ، وانقذوا من مخالب الطغمة الاستعمارية الايطالية شعوبا احبت الحرية ودافعت عنها امجد دفاع ، وبذلت من اجلها دماء الالوف من ابنائها ، وعانت في سبيلها أرهب ما يتعرض له ويعانيه مستعبَد من صنوف الاضطهاد والارهاب .

كان الهدف الاول للستراتيجية الالمانية من معركة افريقيا، ان تجعل من جيوش رومل سداً بين الشرق والغرب ، يحول دون وصول القوات البريطانية والفرنسية والاميركية الى اوروبا . لكن الستراتيجية الالمانية قد اخطأت في الحساب ، ولم تُقدّر ان حرب افريقيا ستكون حافزاً للحلفاء الى مضاعفة قواتهم ، وشحذ نشاطهم ، وتوحيد صفوفهم ، للقضاء على المحور قضاء مبرما في تلك القارة .. فاذا « السد » يتحطم ، واذا القوات المتحالفة تتدفق في طريقها نحو الغرب .

لقد كانت معركة ستالينغراد نقطة تحول في تاريخ هذه الحرب . فبعد ستالينغراد بدا جلياً ان طريق النصر قد انشقت امام الحلفاء ، وان طريق الهزيمة قد انفتحت على مصراعيها امام الالمان وحلفائهم ، وقد بدا بعد ذاك ، ان هذه الحرب واحدة على أي جبهة كانت . فبعد هزائم المحور في ستالينغراد والقفقاس ، بدأت تظهر هزائم روميل في افريقيا تحت ضربات الجيش البريطاني الثامن في تشرين الاول ١٩٤٢ ، والجيوش البريطانية الاميركية التي نزلت في مراكش والجزائر في تشرين الثاني من تلك السنة .

وبعد الخسائر الجسيمة التي تكبدتها الجيوش المحورية في الجبهة السوفياتية خلال معركة الشتاء ، بدأت هذه الجيوش تخسر آخر حصونها في افريقيا ، ثم انتهت الى الهزيمة التامة .

ان انتصار الحلفاء في تونس وبيزرت ، يجعل لهم السيادة على مضيق صقلية وهو المركز البحري الاساسي في المتوسط ، وبذلك تتحرر احدى الطرق الستراتيجية الهامة لدى الحلفاء ، وهي الطريق البحرية بين جبل طارق وترعة السويس . وسيادة الحلفاء في البحر المتوسط وعلى جميع الشواطىء الافريقية ، تفتح امام الحلفاء اقرب طريق الى ايطاليا ، وتضع بين ايديهم قواعد هامة للهجوم على اوربا .

لقد قال الرفيق ستالين منذ ايام : « لاول مرة منذ بدء الحرب نرى الضربات التي يوجهها الجيش الاحمر الى الجيوش المحورية من الشرق ، تمتزج بالضربات التي يوجهها اليها الحلفاء من الغرب » . فهذا الخطر الذي كان يتحاشاه الهتلريون ويخافونه ، قد تحقق الآن ، او هو على وشك ان يتحقق ، بفضل تعاظم قوى الكتلة الديموقراطية وتوثق وحدتها . وليس عبثاً ردد العالم حين ذاع نبأ سقوط تونس وبيزرت : لقد انتهت معركة افريقيا وبدأت معركة اوربا .

اجل ، لقد انتهت معركة وستبدأ غداً معركة اخرى . فافريقيا « اصبحت للالمان مقبرة وللحلفاء محطة » ، وهي محطة قصيرة لن يطول امد الوثوب منها الى اوربا ، الى النصر .

ونحن اعداء النازية والفاشستية في هذا البلد ، نرى من

واجبنا ان نحيي الجنود الفرنسيين والبريطانيين والاميركيين الذين ساهموا في تطهير افريقيا من الوسخ النازي والفاشستي .

نحن المناضلين من اجل الحرية والديموقراطية ، نحيي جميع الجنود الذين ساهموا في انقاذ شمالي افريقيا من العبودية والديكتاتورية ، من تلك الطغمة الفاشستية التي كانت لا تفتأ تتبجح بأنها ستفتتح العالم ، وتعلو فوق النسور ، وتجعل من البحر المتوسط بركة ايطالية !

نحن السوريين واللبنانيين ابناء هذا الشاطىء الجميل الذي طالما تحلب من اجل خيراته لعاب الفاشيست الايطاليين ، نرسل تحية شكر وتقدير الى جميع الجنود الذين ساهموا في تحرير اخواننا العرب في شمالي افريقيا ، من افظع استعمار عرفه التاريخ . واننا لنغتبط ونبتهج اذ نذكر ان بين اولئك الجنود البواسل ، عدداً كبيراً من السوريين واللبنانيين الذين بذلوا دماءهم في افريقيا من اجل حرية سوريا ولبنان ، لانهم يؤمنون بان الفاشستية هي رأس الافعى الاستعمارية التي ليس لنا مع بقائها امل في الحياة ، ولنا بزوالها آمال الحياة كلها ، ويعرفون ان قضية الحرية في العالم قد اصبحت قضية واحدة .

١٠ ايار سنة ١٩٤٣

قوة الشعوب

في ذلك اليوم من حزيران سنة ١٩٤١، اصطدم في البلاد الروسية عالمان : عالم الهدم وعالم البناء . في ذلك اليوم هاجم هتلر الاتحاد السوفياتي بجيش متفوق بالعدد والعدة ، خارج من معارك ظافرة تمرس فيها بالقتال وسكر بخمرة النصر . فكان ذلك اليوم الفاصل في تاريخ هذه الحرب ، يوماً خطيراً في تاريخ الانسانية ، وقفت فيه على مفترق رهيب ، فأما ان تزل بها القدم الى هوة العبودية ، واما ان تواصل سيرها الصاعد نحو الحرية والنور .

وتطلع العالم يومذاك الى الاتحاد السوفياتي ، وتعلقت قلوب الاحرار في مشرق الارض ومغربها بخطوات الجيش الاحمر ، وعقدنا نحن السوريين واللبنانيين والعرب في جميع ديارهم ، آمالنا في الحياة العزيزة والحرية القومية بل رغبتنا في البقاء ، على نتيجة هذه المعركة التي شنها الهتلريون للقضاء على شعب مسالم

محب للشعوب الاخرى ، والحصول في ارضه على موارد جديدة ومراكز ستراتيجية هامة تضمن لهم مواصلة الحرب حتى تسود النازية الدنيا .

وتوغلت جحافل الطغيان في الاراضي السوفياتية وزحفت نحو موسكو ... لكن موسكو كان على رأسها رجل فولاذي كلما تحدث مشى التاريخ خطوة جديدة الى الامام ، وقد ارتفع صوت هذا الرجل ، يومذاك ، حاملاً في نبراته وتموجاته ارادة الشعوب التي لا تغلب ، منادياً : « ايها الرفاق ! ان العالم لينظر اليكم .ويراكم قوة قادرة على ابادة الالمان . وان شعوب اوربا الرازحة تحت نير الغزاة ، لتتجه انظارها اليكم وتعتبركم محرريها.. ان مهمة تحريرية عظيمة تناط بكم فكونوا بها جديرين !».

وحينئذ شهد الناس عجباً ، فبعد ان استفاق الاتحاد السوفياتي من دهشة المفاجأة والغدر ، وبعد ان تعلم الحربَ رجالُ السلم ، تكشّفت الحرب السوفياتية عن وطنية تقاوم الحديد والنار ، وتنسف الدبابة بزجاجة ، وتبذل الدم السخي دفاعاً عن كل شبر من الارض ، وتصد الغزاة عن قلب روسيا وعروس الفولغا ومدينة لينين ، وتقهر جيوشاً قهرت اوربا ، واستولت على مواردها ، واحتكرت صناعتها ، وجندت ابناءها ، وقذفت بذلك كله على البلاد السوفياتية ، فلم تفتتح منها الا المكان الجدير بها ، الا قبوراً تدفن فيها .

وقد تساءل العالم عن سر هذه الوطنية الرائعة ، فوجده في تاريخ الاتحاد السوفياتي الذي اوجد في ربع قرن عالماً جديداً له نظام

اجتماعي خاص هو النظام السوفياتي ، وسلطة شعبية حقيقية هي سلطة السوفيات . ففي ذلك العالم الفريد ، المتعدد القوميات ، القائم على اساس متين من الحرية والمساواة ، امتزجت حرية كل فرد بمصلحة الوطن كله ، وتعانق مصير كل شعب بمصير الشعوب كلها . فاصبح كل فرد يعرف معرفة اليقين بانه ، في الحرب الوطنية التي يساهم فيها ، انما يدافع عن حريته الخاصة ، وعن حقه الخاص ، في الفرح والسعادة . وغدا كل شعب يؤمن ايماناً تاماً بانه ، في الحرب المقدسة التي يخوضها لسلامة الوطن ، انما يدافع عن حريته واستقلاله وكرامته . ومن ثم تجلت في الحرب السوفياتية تلك الوطنية التي لم يُعرف لها مثيل ، لان اسبابها لم تتوافر في وطن آخر ، والتي اجتمع فيها حب الشعوب السوفياتية لبلادها ولنظامها ولخيراتها ، الى جانب احترامها لحقوق الشعوب جميعاً ولحرية الناس جميعاً .

كان الاتحاد السوفياتي يدافع عن هدف نبيل يمثل آمال الانسانية كلها ، وكانت المانيا النازية وحلفاؤها يقاتلون من اجل مطامع استعمارية حقيرة ، من اجل السيطرة على الشعوب واستعبادها ونهب خيراتها . كان هتلر ينادي بحق القوة ، ويتبجح بافضلية الجنس الآري ، ويريد السيادة على اقدار الناس . وكان ستالين يقول : « ان الجيش الاحمر لا يحمل ، ولا يستطيع ان يحمل ، حقداً عنصرياً على الشعوب الاخرى ، بما فيها الشعب الالماني نفسه ، لانه نشأ على فكرة المساواة في الحقوق بين جميع الشعوب وجميع الاجناس ، ولانه يحترم حقه كما يحترم حقوق

الآخرين » . فليس عجيباً اذن ان تلتف الشعوب الشغوفة بالحرية حول الاتحاد السوفياتي ، وان تتألب هذه الشعوب على الطاغية الذي يهدد المدنية باكبر خطر تعرضت له ، وان يقول الرئيس روزفلت في حديث له عن وطن ستالين : « ان المعونة التي تقدمها الولايات المتحدة له ، ليست ظاهرة من مظاهر العطف الانساني بل وسيلة من وسائل الدفاع عن اميركا » ، وليس عجيباً ان يقول مثل هذا القول كل وطني مخلص في أي بلد كان ، فان حرب روسيا ضد الغزاة الالمان ، هي حرب اميركا وانكلترا وفرنسا ايضاً ، هي حرب جميع الامم والقيم ، وهي حربنا نحن الشعوب التي تطمح الى السير في موكب الامم المتحدة على اساس المساواة في الحقوق .

ومن حسن حظ الانسانية ان الاتحاد السوفياتي ، كان في هذه الكارثة ، كما كنا نعرفه ونقول عنه : معقل الحرية الذي بدل وجه الحرب وخلق فيها انعطافاً كبيراً ، واعطى الامم المتحدة الوقت الكافي لحشد قواها وتعبئة مواردها ، وما فتىء ينزل بالجيوش المحورية الضربة تلو الضربة حتى زعزع قوتها ، وصدّع وحدتها ، وجعلها في وضع محرج انتقلت فيه بعد الهجوم الى الدفاع .

في ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ كان هتلر يحلم بسحق الجيش الاحمر تحت ضربات مفاجئة صاعقة ، فشاهد فاول جيوشه المصفحة ترتد عن موسكو تحت ضربات الجيش الاحمر . وفي ٢٢ حزيران ١٩٤٢ عاوده ذلك الحلم المظلم ، فما لبث حتى انقلب الحلم كابوساً مزعجاً شهد فيه فناء عشرات من فرقه المختارة في معركة

ستالينغراد الخالدة ومعارك الشتاء الكبرى . فما عساه يحلم في هذا اليوم من هذه السنة ، وقد ضربت الامم المتحدة حصارها الفولاذي على القارة الاوربية التي حسب انه حوّلها الى جبانة واسعة ، وهو يشهد اليوم عودة الحياة الثائرة اليها كما يشهد القاتل انتشار ضحاياه من قبورها .

لقد ذهبت الاحلام وتبددت الاساطير ، ولم يبق امام الطاغية سوى الامر الواقع الذي ينتظر فيه ان يتلقى ضربات الحلفاء من كل جانب . وانه لانتظار رهيب يقلق الفوهرر ويخيف اتباعه ، لكنه يبهج الدنيا باسرها ، لانه يعيد اليها الامل بالحرية وبالتقدم وبالكرامة الانسانية .

وغداً ، عندما يُكتب التاريخ ، سيقول المؤرخون ان الاتحاد السوفياتي قد انقذ العالم ، وابقى للانسان امله بتلك المقدسات . سيقول المؤرخون : ان الحرب العادلة تخلق الابطال والحرب الظالمة تخلق الوحوش ، وان المواطنين السوفياتيين الذين خاضوا حرب الانسانية التقدمية ، قد ضربوا في البطولة مثلاً اعلى اقام الدليل الصادع على ان شعباً يعرف معنى الحرية ، ويناضل من اجلها بجميع قواه ، لا يستطيع الظلم ان يقهره مهما اوتي الظلم من قوة وأُعطي من اساليب الارهاب .

ان قوة الشعوب لا تُغلب ، تلك هي العبرة الكبرى التي تخرج بها الشعوب ، ونخرج بها نحن ، من الدروس الكثيرة التي تلقيها الحرب الالمانية السوفياتية : حرب الوحش والانسان .

٢٢ حزيران سنة ١٩٤٣

رسول السلام

الحرب تفتك بالانسانية وتلتهم ميراثها العريق ، والحضارة تتعفر بالوحل والدم ، والعالم فريسة القلق واليأس ، ومع ذلك فكلما دنا موعد هذه الذكرى التاريخية ، ذكرى تأسيس الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، تسري في الدنيا موجة من امل وثقة وايمان . لان في ذلك القطر العظيم يتقرر مصير الانسانية والحضارة والعالم جميعاً ، ولان النبتة التي غُرست فيه ما لبثت ان اصبحت دوحة ، فذكرى نشوئه هي ذكرى انتصاره ، والعالم احوج ما يكون الآن الى ما يعزز فيه الامل بالنصر العادل ، وها هو يوم ٧ تشرين الثاني من هذا العام قد سجل انتصاراً جديداً هو تحرير كييف ، عاصمة اوكرانيا وملعب طفولة اهرنبورغ ، فلم يكن هذا النبأ بشرى خُص بها الاتحاد السوفياتي ، بل كان نسمة من الخير هبت على الدنيا .

ستة وعشرون عاماً من التطور الدائب ، ذلك هو تاريخ الاتحاد

السوفياتي . وليست الاعوام الستة والعشرون بالمرحلة التي تذكر في حياة الشعوب ، لكن هذا القطر قد سار فيها بخطى الجبابرة فحقق من الانتصارات ما كان ينبغي له عصور من العمل الجاهد ، فازدهرت المواهب والكفايات التي دفنها الاضطهاد في اعماق مائة وخمسين شعباً ، وتمتعت هذه الشعوب بنعمة الحرية وفرح الحياة . واذا كان الوطنيون الصادقون والاحرار في كل بلد يحبونه ويعجبون به ، فليس فقط لانه وطن ينشد السلم لنفسه ويريد الحرية لشعوبه ، بل لانه ينشد السلم والحرية لجميع الشعوب .

كان اول اعمال الدولة السوفياتية انها الغت الغبن والامتياز الناشئين عن سبب قومي او ديني ، وقد حرص ستالين ، وهو ابن الشعب الجيورجي الذي عانى الوان الاستعباد القيصري ، على تحقيق المساواة التامة بين جميع القوميات والشعوب السوفياتية ، ثم بادرت الدولة السوفياتية الى تطبيق هذا المبدأ على الشعوب المجاورة لها ، فمنحت فنلندا استقلالها ، واعترفت بامم البلطيق دولا ذات سيادة تامة ، وتنازلت عما كان للدولة القيصرية في الصين وتركيا وافغانستان وايران وبولونيا ورومانيا من امتيازات استعمارية ، وقدمت لهذه الاقطار التي كان اسم روسيا وحده مبعث خوف لديها ، مساعدات فعالة كان لها اثر كبير في تقدمها وتطورها .

وطبيعي ان الاتحاد السوفياتي ، فضلاً عن الاساس المبدأي الذي يحدوه الى انتهاج هذه السياسة المحمودة ، كان ينظر ايضاً

الى مصلحته الخاصة التي تقضي بتوطيد السلام في البلاد المجاورة له ، وتحريرها من كل نفوذ او مطمع لمستعمر ، كما ان من مصلحته العليا ان يسود السلام والحرية في جميع الشعوب ، لانه كلما توافرت للشعوب حرياتها وساد السلام بينها ، استطاع الاتحاد السوفياتي ان يأمن جانب العدوان الخارجي وان يعكف على بناء كيانه وينصرف الى متابعة تطوره .

ولذلك كان الاتحاد السوفياتي دائماً مصدر قوة وثقة وايمان لجميع الاحرار والمناضلين الوطنيين في العالم :

لما وطئت قدما الزنجي الاميركي بول روبسون المغني الاميركي الشهير ، ارض الاتحاد السوفياتي ، قال : « اشعر بانني هنا اكثر تمتعاً بالحرية من بلادي ، فقد سقط من طريقي في الحياة حتى حاجز لوني الاسود » . ولما كان ديمتروف في قبضة الغستابو كتب له مجاهد من برلين : « ان حياتنا لشاقة لكن لا تزال موسكو على الارض » . ولما احتل اليابانيون منشوريا دعا احد كتابها مواطنيه الى متابعة المقاومة قائلا لهم : « ان الى جانبنا شعوباً سوفياتية تؤيد حقنا في الحياة الحرة » . ولما احدقت الفاشستية بالجمهورية الاسبانية تبنت روسيا الوف الاطفال الاسبان الذين استشهد اباؤهم في النضال . ولما ضحى مؤتمر مونيخ بتشيكوسلوفاكيا ردد الشعب التشيكوسلوفاكي : « ان السوفيات وحدهم قد اخلصوا لنا » . واليوم ، ترتفع من جميع اوربا اصوات تنادي : « عجل ايها الجندي الاحمر ، فان تأخير يوم ، يزيد عذاب ملايين الاشخاص الذين يفكرون بك

في عناد ، وغصة ، وامل .. عجل ايها المحارب ، ولا تنس انك جندى احمر ! »

ولا ريب في ان المواطن السوفياتي يسوده شعور بالغبطة ، عندما يستعرض اليوم سياسة حكومته خلال ستة وعشرين عاماً ، فيرى انها كانت تستهدف السلم دائماً ، وتحرص على توطيد العدالة بين الشعوب ، وتؤلف مصدر قوة وايمان لجميع احرار العالم . على ان هذه الغبطة لا تقتصر على المواطن السوفياتي ، فأي رجل شريف في الدنيا لا يبتهج لوجود دولة قوية كالاتحاد السوفياتي ، تجعل اهدافها نشر السلم والدفاع عن حقوق الشعوب ، لان طبيعة نظامها الاقتصادي ومبدئها الفكري ومصلحتها الخاصة ، تختلف عن طبيعة الانظمة والمبادىء والمصالح السائدة في الدول التي تكون الحرب لديها ويكون الاعتداء والارهاب ، ضرورات لابد منها لبقاء انظمتها ودوام سيطرتها على الآخرين ! واي رجل شريف في الدنيا لايسره ان سياسة السلام التي يعتنقها الاتحاد السوفياتي ، هي سياسة حازمة صريحة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ، ولا تشبه في شيء السياسة السلمية المائعة المرائية التي تخفي من المطامع ما يناقض ما تبديه . أي رجل شريف في الدنيا لا يبتهج اذ يرى سلام العالم تقبض عليه ايد مخلصة قوية !؟ .

لقد اضطر الاتحاد السوفياتي ان يدافع عن السلام بالسلاح ، منذ دوى صوت لينين عبر الحدود والخنادق ، داعياً الى هذه الامنية الخالدة . واليوم ايضاً ، بعد ست وعشرين سنة ، يدافع

الجيش الاحمر عن السلام بالسلاح ، باقوى سلاح . لكن لشد ما تبدلت الامور خلال هذه الست والعشرين سنة ! ففي عام ١٩١٧ كانت روسيا وحدها ، وكانت اكثر الدول متنكرة لها متألبة عليها . في ذلك العهد ، كان النظام السوفياتي ، في نظر بعض الدول ، مرادفاً لكل ما هو شائن وقبيح ، بل ان اكثر الدول التي تسمي الان الدولةَ السوفياتية حليفتها الكبرى ، وتعقد عليها آمالها في الحياة ، لم تكن لتعترف بها او تنظر اليها كدولة مساوية لها في الحقوق : حقاً ان الحجر الذي رفضه البناؤون قد اصبح حجر الزاوية !

ان ثمة معنى عميقاً في التطور الذي شهدناه خلال الربع الاخير من هذا القرن ، والذي جعل من دولة السوفيات المنبوذة ، رغم كيد الدسائس وبغي الخصوم ، ارسخ دعامة للمدنية ، واقوى مدافع عن التراث الانساني ، وامل اوربا بالتحرر من النير الهتلري بل امل العالم الوحيد في نشر السلام والحرية ! فلقد مزقت الاحداث المختلفة التي تعاقبت خلال هذه المرحلة ، كثيراً من الاقنعة والحجب التي كانت تخفي حقائق الاشياء . فبعد مؤتمر مونيخ ، وهدنة فرنسا ، وخيانة كثير من الاشخاص الذين كانوا يزعمون قبل الحرب انهم الوطنيون الوحيدون والذين اسفروا خلال الحرب عن وجوههم فظهروا على حقيقتهم : عبيد المنفعة الشخصية والطغمة الرجعية وسلاحاً يُسدد الى قلب وطنهم في احرج الظروف — بعد هذا وغيره من الاحداث ، عرفت الشعوب من هم اعداؤها ومن هم اصدقاؤها ، فاحاطت الاعداء

بالحقد والاحتقار ، وتطلعت الى الاتحاد السوفياتي بحب واعجاب لانها عرفت فيه رسولا للسلام الصحيح ، وصديقاً للشعوب الضعيفة ، ونصيراً لكل طالب حق .

اجل ، لقد تبدلت اشياء كثيرة خلال الستة والعشرين عاماً الاخيرة ، بل لقد تبدلت الاشياء كلها ، لكن شيئاً واحداً لم يتبدل : هو سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية القائمة على احلال التعاون محل التنازع في العلاقات الدولية ، واعطاء الشعوب حقها في تقرير مصيرها . وان اقتناع الوطنيين غير السوفياتيين بهذه الحقيقة نفسها ، هو احد الاسباب الرئيسية التي جمعت حول الاتحاد السوفياتي جميع الشعوب الطامحة الى حقوقها وحرياتها ، لانه الرمز العملي لتلك الحقوق والحريات ، والقوة الراجحة التي تمهد من هذه المطالب ما كان عصياً منذ سنين ، ولانه الدولة الوحيدة التي حققت رخاءها الاقتصادي وازدهارها الاجتماعي وتطورها الفكري دون ان تلجأ الى الحروب الاستعمارية ، ودون ان تغزو الاسواق الخارجية ، ودون ان تغرق وطنها في طوفان من القروض ، بل بلغت ذلك كله باتحاد مائة وخمسين شعباً تضامنت وتعاونت في استخراج كنوز الارض ، وزيادة القوى المنتجة ، ورفع مستوى الحياة . وان شعوب كازاكستان واوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان وعشرات الشعوب الاخرى ، قد ضربت مثلاً رائعاً على ان الشعوب الصغيرة ليست كما يزعم فريق من الرجعيين ، بحاجة الى الاستعماريين والمبشرين والجلادين والصهيونيين لكي تصبح

شعوبا راقية متحضرة . فالشعوب المنعتقة من القيود ، مهما كانت صغيرة وضعيفة ومتأخرة ، تستطيع ان تبلغ في فترة وجيزة قمة الرقي واوج الحضارة ، كما بلغتهما شعوب الروسيا بعد ان انعتقت من قيودها .

وفي هذه الايام التي تتجاوب فيها صرخات العذاب من اقصى العالم الى اقصاه ، في هذه الايام التي تعاني فيها الاستعباد شعوبٌ كانت من ارقى شعوب العالم ومن اثبتها استقلالا — في هذه الايام العصيبة من تاريخ الانسانية ، يقف الاتحاد السوفياتي كالمنارة الهادية في العاصفة الباغية ، تبشر الغرقى بالخلاص وترشدهم الى شاطىء السلامة . فأي انسان جدير بهذا الاسم ، أي وطني يريد حرية بلاده ، وأي عربي حريص على مصلحة امته ، لا يحمد القدر على ان تطور التاريخ قد تمخض في اليوم السابع من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بدولة جبارة ، مسالمة لكنها قوية ، لا تعتدي على غيرها لكنها تصد الاعتداء عنها ، وقد سوبقت فسبقت وغولبت فغلبت وارتد اعداؤها خاسرين . دولة عادلة ليس امثل منها سياسة ومذهباً ، وقد اصبح مجرد وجودها رجاء يرفع عائر الآمال ، ورمزاً طالعاً للحرية والاستقلال ، وبرهاناً بوجه الشك على ان قضايا الشعوب وقضيتنا نحن العرب سائرة نحو الظفر المنشود .

فالى الرجل الذي يرقد في ساحة موسكو ، والى رفيقه في الفكر والسلاح ، الى القائدين الكبيرين اللذين انشأا هذه الدولة من عدم ، واضرما فيها شعلة الحياة ، لا ترتفع فقط ، في هذا

اليوم العظيم ، تحيات مائة وثمانين مليوناً من البشر يعيشون على سدس الكرة الارضية احراراً مدافعين عن الحرية ، بل تصعد ايضاً تحيات واماني جميع الوطنيين الصادقين الطامحين الى الحرية والمناضلين من اجلها في العالم .

٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣

المعلّم الأميّ

لي في الحي الذي أقطنه جار يضحكني أمره (١).. هو معلم يزعم ان رابطة الفكر تجمعني واياه على صعيد واحد ، وازعم انني لا يجمعني واياه سوى هذا الحي الذي نكبني بجيرته كما نكب سكانه جميعاً بحشد من الجرذان لا يكاد الليل يسبغ ظله ، حتى تنطلق من مخابئها ، فتصول وتجول ، وتكر وتفر ، حتى لا تدع زاوية الا دخلتها وعاثت فيها ، كانها مكلفة واجباً تأبى الا ان تؤديه على وجهه الاكمل .

وقد كان صاحبي وفياً بحق تلك الرابطة ، التي لا ادري كيف اكتشف وجودها بيني وبينه ، فكان حفياً بي حريصاً على معاشرتي ، يبحث عني كل صباح فلا يعدم سانحة يلتقيني

---

(١) اذيع هذا الحديث من محطة راديو الشرق ، لمناسبة الحملة التي قام بها احرار البلاد العربية احتجاجاً على انتشار عملاء الهتلرية في لبنان من قبورهم . .

بها في الطريق او في حانوت الحلاق او لدى بائع اللبن ، فيُعرب عن اخلاصه لي واهتمامه بشأني ، ثم يستحلفني بحق الفكر، هذه الرابطة المقدسة التي تجمع بيننا ، ان اقوّم من سيرتي الادبية ، وان اصحح آرائي في الفلسفة والاجتماع والسياسة على غرار آرائه هو ، هو الذي خبر الحياة فعرف خيرها وشرها وخلص منها بعقيدة معادية للشعب ، ومعادية للديموقراطية والحرية ، ومعادية للكيان اللبناني والفكرة العربية جميعاً . ولا ادري كيف كان يتسع قلب صديقي الذي يجيش بجميع هذه العداوات ، لصداقتي انا ، أنا الذي اناضل من اجل تلك المقدسات بكل جارحة في نفسي.

وكثيراً ما كنت احاول مناقشة هذا الصديق الغريب ، في آرائه السياسية والاجتماعية ، فكنت لا اظفر منه الا بابتسامة مشفقة هي ابتسامة المعلم لتلميذ ساذج ، حتى ايقنت بان مثل هذا الرجل الذي تحجرت عقائده لا ينفع في مناقشته برهان او منطق ، فرحت اداعبه كلما التقيته بنكتة تفجّر كامن غضبه ، حتى انقلبت صداقتنا الى خصومة ، وانقسم سكان الحي بين مؤيد لي ومؤيد له . لكن الاحداث السريعة المتعاقبة ، كانت لا تفتأ تثبت للناس ضلاله ، فتنفّرهم منه وتبعدهم عنه ، حتى اصبح في الحي فريقاً وحده . ثم زادت في تنكر الناس له ومقتهم اياه امور بدرت منه في عهد فيشي المظلم ، فكشفت عن اتصاله ، اتصالا لا يُشرّف صاحبه ، باعداء لبنان واعداء حلفائه . ومنذ ذلك الحين انتشرت رائحة الدعاية الهتلرية في فمه صريحة ، وقحة ، فكأنه كان يتكلم بفم غوبلز نفسه .

لقد كان من الطبيعي ان ينتهي الى خدمة الفاشستية ، رجل يجيش في نفسه مثل هذا الحقد على الحرية والديموقراطية ، ومثل هذا العداء لشعبه ووطنه . لكن من الغريب ان يتمادى امرؤ ، كما كان يتمادى هو ، في ضلاله وعناده ، حتى امام البرهان القاطع . فقد كانت الانباء توافينا بهزائم الفاشستية المتتالية ، فيؤكد ان هذه الانباء كاذبة وإن أذاعتها برلين نفسها . ولما اباد السوفيات الفرق الهتلرية المختارة امام ستالينغراذ ، وطرد الحلفاء آخر فلول الفاشستية من تونس ، انقلب المعلم المدرسي الى خبير عسكري يقيم البرهان على ان هاتين الكارثتين هما انتصاران كبيران للالمان . وهكذا استسلم المارشال فون باولوس ، واستسلم المارشال فون ارنيم ، وصاحبنا لم يستسلم .

وعقبت ذلك هزائم متواصلة منيت بها الجيوش المحورية في الاتحاد السوفياتي ، ودخل الحلفاء دخول الظافرين الى صقلية والى ايطاليا نفسها ، وانهار النظام الفاشستي انهياراً مريعاً امام اول صدمة لاقاها ، ولاذ موسوليني بالمانيا خوفاً من غضب الشعب الايطالي .. وصاحبنا يستقبل هذه الاحداث بابتسامة صفراء تشفق على عقولنا التي لا تدرك ان وراء هذه الهزائم كلها ، خطة بصيرة مدبرة ، فكأن المسكين قد وقع في شراك دعايته نفسها !

واخيراً هاجم الحلفاء فرنسا واستطاعوا النزول الى القارة ، فهل تحسب ان معلمنا قد اقتنع بدنو الساعة التي يتمزق بها الجيش الهتلري وتنهار النازية ، كما انهار قبلها كل نظام اقام

بنيانه على الجريمة ؟ كلا ، لقد لبث ينتظر المعجزة ... وذات صباح ، طاف صاحبنا منازل الحي داراً فداراً ، ينبئنا جميعاً ، والابتسامة الصفراء تضيء قسمات وجهه ، ان المعجزة قد وقعت ، فالمانيا قد انزلت الى ساحة القتال سلاحاً سرياً خطيراً لن يبقي ولن يذر ، هو الطائرات الآلية او القنابل الطائرة ...

حقاً لقد ضحكت كثيراً... ان هذا المعلم الامي ، يستبشر بهذه الآلات العمياء ، كأنه لم يعرف ان هتلر لم يحارب منذ اللحظة الاولى ، الا بآلات عمياء مشابهة لها . وهل كان هدف النظام النازي منذ وجد ، الا ان يخلق شعباً من العبيد الطائعين والآلات المسيّرة لتكون وقوداً لآلته الحربية ؟!

يقول هتلر ان الاستبداد هو ينبوع الحكم ودعامته ، وان الانسان ضعيف وجبان بالفطرة ، وليس من رسالته هو ان يصلح الانسان ، ويقضي على رذائله ، بل ان يستغلّ هذه الرذائل . ويصيح غورنغ : « اقتلوا اقتلوا ، اقتلوا دون تفكير ، وعليّ انا تقع تبعة جريمتكم ، فاقتلوا اذن » ! ويعود هتلر فيقول ، وكأنهما يتحاوران في مسرح : « سأنقذ البشرية من هذه السخافات التي يسمونها انسانية ورحمة وكرامة ومروءة ، فانا اتمتع بمزية واحدة ، هي انني لست اسير هذه الاعتبارات الخلقية » !

على هذه « المبادىء » كان الهتلريون يتربون منذ عشر سنوات ونيف ، يتربون على الخضوع والطاعة ، حتى خلعت نفوسهم من جميع العناصر التي تؤلف شخصية الانسان ،

واصبحوا عبيداً مسيّرين ، حتى خطرات قلوبهم ليست لهم ، فهم يحاسبون عليها حساباً عسيراً ، واللسان الذي يجري بكلمة لم يتلقنها مقضي عليه بان يُقطع .

فالنازية حزب لا تلتقي قلوب انصاره الا على غرض واحد ، هو الطاعة . وفي هذا الحزب كان هتلر يعمل على قتل انسانية الانسان ، واطلاق احط غرائزه الحيوانية ، وجعله مخلوقاً مسيّراً يستجيز الجريمة ولا يعترف بقانون اخلاقي . وقد كان على الالماني ان يألف هذا الجو المسموم ، فيعطل فيه ملكاته ، ويخنق مواهبه ، ويقتل شخصيته ، حتى يصبح نازياً : أي حيواناً يسير على قدمين ، أي آلة عمياء مسيّرة .

فلا يستبشر صاحبنا بهذه الآلات الجديدة التي قذف بها هتلر الى الميدان اذ ادركه اليأس ، فان جميع الجنود الهتلريين آلات عمياء . وهو نفسه ليس سوى آلة مسيرة من آلات الفوهرر ، هو قنبلة من قنابله ولكنها مملوءة سخافة وجهلا ..

اما نحن الذين كان اعظم ما نخشاه على العالم وعلى الحضارة ، هو هذه الروح الآلية التي تسيطر على اتباعها وجنودها ودعاتها ، فقد ازالت الحرب مخاوفنا بتجاربها الساطعة التي اثبتت اكثر من اي وقت آخر ، ان الانسان اقوى من الآلة ، حين رد الانسان السوفياتي قطعان البربرية الفاشستية قائلًا لها : لن تستطيعي وقف دولاب التاريخ ، فالتاريخ يعمل لنا .

لكني لا استطيع اذ استعرض سيرة هذا الرجل الآلي ،

الا ان اقف مستغرباً امام الظاهرة المستنكرة التي يؤلفها النفر الذين يمثلهم وان كان عددهم لا يتجاوز عدد الاصابع : انهم يأكلون الغذاء الذي تنبته تربة وطنهم الطيبة ثم يهاجمون هذا الوطن وشعبه ، يهاجمونهما من كل سبيل ، لانهم باعوا انفسهم كما تباع الخرق العتيقة .

... تُرى متى يُطهر حيّنا من الجرذان ومن اشباه الآدميين ؟ !

٢٠ حزيران سنة ١٩٤٤

منطق التاريخ

لا اذكر أي كاتب غربي قال في الايام الاولى العصيبة من هذه الحرب : « ان النكبات لتتعاقب بحيث لا نعرف اليوم عمن سنبكي غداً » ! ان هذه الكلمة المؤثرة لتطفر الآن من غيابة الذاكرة ، اذ تتوالى الانتصارات حتى لا نكاد نعرف اليوم أي بشرى يحملها الينا الغد .

لا ادري أكان فينا ، نحن الوطنيين العرب ، من بلغ المه هذا الحد ، لكني واثق من انه كان ينبغي للانسان الأنسان ان يكون له خلق عظيم واعصاب خارقة ، لكي يحتفظ بابتسامته أمام الاحداث التي كانت تروّع ضمير العالم . . ولم تكن تلك الابتسامة الشاحبة في الاغلب ، الا تقديراً متواضعاً لقوافل الشهداء الذين كانوا يتساقطون في ساحة النضال من اجل الحرية ، اولئك الابطال الذين لم يُتح لنا ان نكون الى جانبهم ، فكنا نبتسم اعجاباً بهم ، بل حياء منهم .

واليوم ، وقد تبدل وجه التاريخ ، فجاء دورنا في الضحك، تأبى تلك الابتسامة الشاحبة ان تفارق شفاهنا . يقولون ان من يضحك أخيراً يضحك كثيراً . أجل ، ولكن المناضل الذي لم يستسلم للبكاء لان التخاذل ليس من طبعه ، يأبى ان يستسلم للضحك لان الشماتة ليست من شيمه . . كيف به اذن وفي الافق ظلمات لما تنقشع ولا تزال ثمة عقبات دون الانتصار الاخير .

لكن هذه العقبات مهما عظمت مشقاتها ، لا تستطيع ان تنسينا ان الوضع قد تبدل ، او انقلب ، او انه عاد الى ما يجب ان يكون عليه . حقاً ان معركة ستالينغراد قد تركت في التاريخ اثراً لا يمكن ان تتركه معركة اخرى .. فهل هذه الانتصارات المتتابعة الاتزر من ثمار تلك الدوحة التي روّاها الدم الشريف فأخرجت شطأها وآتت أكُلها . لقد تتابعت الانتصارات منذ خريف سنة ١٩٤٢ حتى سقطت روما بين ايدي الحلفاء ، كما تسقط بين يدي البستاني ثمرة حان قطافها. ثم كان من هاتيك الثمار ، ثمار الدوحة التي بسقت على ضفاف الفولغا ، هذه الجبهة الجديدة القديمة في الغرب (١) ، التي يسمونها الجبهة الثانية وهي الجبهة الاولى التي شهدت اولى شرارات الحرب . وبهذا الانتصار — لان نزول الحلفاء على الشواطيء الفرنسية هو بحد ذاته انتصار كبير — دخلت الحرب في مرحلتها

«١» اذيع هذا الحديث من راديو الشرق ، لمناسبة افتتاح الجبهة الثانية في الغرب .

الحاسمة ، وهي بلا ريب أصعب مراحلها ، لان العدو ، الذي تزداد كبرياؤه كلما ازدادت جرائمه ، سيدافع فيها عن نفسه بكبرياء مجرم ادركه اليأس .

لقد كان العدو يبذل جهوده كلها لتأخير هذه المرحلة الحاسمة والاستعداد لها . فمنذ معركة ستالينغراد ، اذ عرف انه اوشك على النهاية ، وهو جادّ في تحصين الابواب المفضية الى بلاده .. لكن هذه الحصون لم تكن قادرة على صد هجوم جدي ، فلم يلبث الجيش الاحمر ان اقتحمها من الشرق، ثم اقتحمتها جيوش الحلفاء من الغرب ، فوجدت المانيا نفسها في الموقف الذي كانت تخشاه ، والذي كانت تحاول عبثاً ان تتجنبه ، بالتهويل في تصوير قوتها ومناعة حصونها ، وبالقاء بذور التفرقة بين صفوف الحلفاء .

وفي هذه المرحلة الحاسمة ، ارتدّت الحرب طابعاً جديداً. فبينما كانت المانيا تزحف على اوربا فتسيطر عليها ، ثم تحشد كل ما في هذه القارة من وسائل الدمار ، وتقذف بها البلاد السوفياتية الآمنة ، اذا بالجيش السوفياتي يضع اقدامه على الحدود الالمانية ، ويزحف نحو برلين التي ظلت طوال سنوات تُرعد وتزمجر مثل بركان يتقيأ الموت .

ان حدود المانيا التي استطالت وتمددت حتى شملت بضعة عشر قطراً ، اصبحت تتقاصر الان ، وتتقلص شيئاً فشيئاً ، امام هذا الجيش الظافر الذي تركزت في قلبه كل الشجاعة التي في العالم ، والذي انعقدت عليه آمال الانسانية كلها .. وان وقْع

أقدامه ليتجاوب في انحاء القارة المنكوبة ، كأنه نداء الحرية ، فتتحرك لسماعه الشعوب الرازحة تحت النير ، وتتحفز لاسترداد اعلامها الاسيرة ..

خمس سنوات تقضت على العدوان النازي ، وكأنها خمسة اجيال طويلة ، تغير خلالها وجه الانسان ووجه الارض : انطبع الاول بالالم واتسم الثاني بالخراب ! ولكن الشقاء الذي يأخذ كثيراً ، يعطي كثيراً ايضاً . وقد اعطت تجارب الحرب ونكباته العالمَ روحاً جديدة ، هي هذه الروح الانسانية التي ربطت الاحرار في مشرق الارض ومغربها برباط وثيق ، والتي تحملهم اليوم على جناحيها الى عاصمة العبودية ، الى برلين .. لقد حرّكت هذه الروح الانسانية قوى الحرية ودفعتها الى امام ، وليس من يدري اين يستقر مطافها ..

لقد كانت تجارب الحرب ، على قسوتها ، درساً يعلّم من جهل ونوراً يهدي من ضل .. افلم تعلمنا معنى الوطنية ، وتزيد تعلقنا بالحرية ، وتوقظ من آمالنا ما رقد ؟ وها هي ترينا رأي العين ، كيف يرتد سهم الظالم الى نحره ، وكيف تدول دولة الطغيان . لكن اعظم ما تلقيه علينا هذه التجارب من عبر ، هو ان القوة بحاجة الى حق يدعمها لكي تعيش ، كما ان الحق بحاجة الى قوة تحميه . فالمانيا النازية كانت تملك اقوى الة حربية وأقوى جيش مدرب ، ولكنها كانت تسخّر قواها لاغتصاب حقوق الشعوب الاخرى ، فلم تلبث هذه القوى ان انهارت امام ايمان الشعوب السوفياتية بحقها ودفاعها عن هذا

الحق دفاع المستميت . وقد رأينا الالمان يبلغون ضواحي العاصمة السوفياتيه ثم يرتدون عنها خاسرين ، ورأيناهم يتوغلون في البلاد السوفياتية فيلاقون في كل شبر من الارض دفاعاً جباراً ، وبطولة فريدة ، ووحدة عظيمة بين الشعب السوفياتي والجيش السوفياتي والقواد السوفيات ، لانهم يدافعون جميعاً عن هدف وطني واحد يؤمنون به جميعاً ويقدسونه جميعاً ، ولأن هذا الهدف لا يتنافى مع مصلحة الانسانية ، ولا يتعارض مع تطور التاريخ . ثم ما كادت الحرب تنتقل الى اوربا وتشارف الحدود الالمانية ، حتى رأينا القادة الالمان يتخبط بعضهم في دماء بعض ، والبلاد الالمانية تصبح مسرحاً لاضطرابات داخلية بين لصوص تساهموا ارتكاب الجريمة وهم يحاولون اليوم ان يتهربوا من العقاب .

كان الهتلريون يحاربون من اجل المدى الحيوي وهم يحاربون اليوم دفاعاً عن انفسهم ، ولا اقول دفاعاً عن وطنهم ، فليس للهتلريين وطن لانه ليس لهم من الشرف ما يحملهم على محبة وطنهم والدفاع عنه . ان الحرب الوطنية بحاجة الى ضمير حي وقد قتلت النازية ضمائر اتباعها . الم نسمع احدهم يقول : ان ضميري يدعى ادولف هتلر ! وقد طبعهم هتلر هذا بطابعه حتى اصبح كل واحد منهم فوهرراً صغيراً . لقد قال لهم : انكم ستسودون العالم ! ولم يقل لهم : انكم ستدافعون عن وطنكم ! لقد اثار طمعهم بخيرات الشعوب الاخرى ولم يوجههم الى الانتفاع بخيرات بلادهم . وعندما يقاتل المرء لكي يسرق ، قد يقول : كفى ! اذا امتلأت جعبته او انتهكت قواه . ولكنه عندما

يحارب من اجل وطنه يمضي الى النهاية . فالظلم يجعل من المظلوم بطلاً ، ولكن الجريمة مهما أمدت صاحبها بالكبرياء ، فانها لا بد من ان تدفعه الى التخاذل عندما يشهد سيف العدالة مشهراً في وجهه كما يشهده اليوم الجندي الالماني عندما يرى الجيوش السوفياتية الزاحفة الى بلاده .

لما دخل الالمان اراضي الاتحاد السوفياتي بدأوا يتعلمون اللغة الروسية في كراسات اول ما تلقنوه فيها امثال هذه الجمل التي يحتاجون اليها : « اين مؤونتك ؟ احفر قبرك ! تعالي ننام معاً ... » واليوم يتعلم الجنود الحمر اللغة الالمانية في كراسات تحتوي قوائم مفصلة لأهم الجمل التي تفيدهم عند دخولهم المانيا وفي مقدمتها هذه الكلمات : « ارفع يديك ! اذكر الحقيقة ! اين معسكر الاعتقال ! » .

ذلك هو منطق التاريخ !

يقول ايليا اهونبورغ في مقال حديث له : « يمكن ان يصفح الانسان عن انسان مثله لكنه لا يصفح عن وحش . وهو يستطيع ان يغفر عما حل به لكنه لا يستطيع ان يغفر عما حل بالآخرين . في ماريوبول قاد الالمان في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٤١ الوفاً من الناس الى العذاب وامروهم ان يخلعوا ثيابهم ويقفوا امام الجلاد ، فلم تفهم الصغيرة فاليا ما يُراد بها ، وصاحت فرحة : اماه سنغتسل ! فمن ذا الذي يجرأ ان يغفر للالمان باسم فاليا ؟ »

ويقول هذا الكاتب الروسي : « نحن لا نريد الانتقام ، ولن نعامل الالمان بالمثل . لن ندمر المراصد ودور العلم ، ولن نحرق

متحف غوته وغيره من المفكرين ، ولن نحشو افواه الاطفال بالسم .. لكننا نريد ان نخلّص العالم من القتلة . سنذهب الى بلادهم لكي لا يعودوا الى بلادنا مرة اخرى .. ونحن واثقون من اننا لن ننقذ بذلك اطفالنا فقط وبلادنا فحسب ، بل سننقذ الانسانية كلها وننقذ مُثُلها العليا وآمالها بمستقبل سعيد »

... ذلك هو صوت العدالة !

٢ آب سنة ١٩٤٤

انتصار باريس

منذ اسبوع وباريس ، هذه الكلمة الحلوة ، تتردد على كل شفة ويخفق لها كل قلب . وكذلك كان شأن باريس في جميع الازمان .. ففي كل حين لها انتصار يلفت انظار العالم ، وقد كان انتصارها الاخير اعظم انتصاراتها شأناً ، لانه حررها من اعظم نكبة حلت بها ، من اعظم نكبة تحل بالشعوب !

وقد كان نبأ تحرير باريس مفاجئاً كنبأ احتلالها . وكان لكل من النبأين صدى بعيد في العالم : اطلق احتلالها قوى الشر فيه ، وقطع تحررها السنة السوء .. ذلك أن باريس كانت ، منذ ثورتها الكبرى ، قلب المدنية الاوربية ، وطليعة قوى الحرية في القارة العجوز ، ورمز النضال من اجل حقوق الانسان ، فكل ما يعرض لها من خير او شر يترك اثره البعيد في كل مكان . وليس القول بان باريس لازمة للدنيا ، لازمة للانسانية ، لازمة للحضارة ، مجرد كلمات تُطلق جزافاً ولا تنطوي على

معنى عميق .

ولباريس اخت كبرى في النضال ، هي موسكو عاصمة الشجاعة ، عاصمة البطولة الفريدة والوطنية المثلى ، البعيدة عنها جغرافياً ولكنْ القريبة منها قرب الشقيق الى الشقيق . لما كان الالمان على ابواب العاصمة السوفياتية ، قال ديغول : « ان فرنسا الرازحة في الالم هي مع روسيا التي تتألم ، ان فرنسا المناضلة هي مع روسيا التي تناضل ، ان فرنسا الغارقة في اليأس هي مع روسيا التي عرفت ان تصعد من ظلمات الهاوية الى شمس العظمة ! » ولما انتصرت موسكو وردّت عنها الوحوش النازية ، قال اهرنبورغ : « ان انتصارنا لا ينسينا ما تعانيه الشعوب الاخرى من آلام ، لا ينسينا ما تعانيه باريس ، فيا اخواننا في البلاد الخاضعة للنير ، تشجعوا وصابروا فالنصر الكامل قريب ! »

وكانت باريس تتطلع دائماً الى هذه الاخت الكبرى ، واثقة من ان مصير الحرية في العالم انما يتقرر على ضفاف الدون والفولغا ، فكانت تردد بابتهاج صدى المدافع التي تحيي بها موسكو انتصارات جيشها الاحمر ، لانها تعرف ان كل انتصار يحرزه هذا الجيش يقرّبها شوطاً جديداً من يوم خلاصها ... وكانت تستعد خلال ذلك لهذا اليوم الكبير !

فانتصار باريس لم يكن انتصاراً مرتجلاً ، بل كان انقلاباً هيأته في الخفاء ، مرحلة طويلة من النضال ، وجمهرة مختارة من قادة الشعب نظمت حركة المقاومة ودربت جماهير غفيرة على القتال . فلما كان الظرف المناسب ، نهض شعب باريس بأسره

الى المعركة ، وتحول كل شيء في باريس الى سلاح بيد هذا الشعب الثائر . ولما دخلت جيوش الحلفاء العاصمة الفرنسية ، وجدت فيها شعباً ظافراً لا شعباً خانعاً مغلوباً .

ان اعظم ما في انتصار باريس ، ان عمالها المناضلين ومفكريها الاحرار هم الذين حرروها بايديهم ومعاولهم ، فطهروا بذلك عاصمة النور من العار الذي وصمها به نفر من الخونة ، وفي هذا درس جديد تلقيه هذه المدينة على العالم . في ١٣ حزيران سنة ١٩٤٠ استخذى قادة جيش من اكبر جيوش العالم ، فاعلنوا العاصمة الفرنسية مدينة مفتوحة ، فدخلها الالمان في اليوم التالي على اهون سبب . وفي ١٩ آب سنة ١٩٤٤ ، بعد اربع سنوات من الجوع والعذاب والوان الاضطهاد ، يعلن شعب باريس الاعزل ، المنهوك القوى ، الحرب على الجيش الالماني وانصاره من الخونة المنحطين ، فلا تمضي اربعة او خمسة ايام من القتال العنيف ، حتى ينسحب الالمان من المدينة ويرتفع علم الثورة الفرنسية مكان العلم النازي على قوس النصر ..

لقد حسب الخونة انهم يستطيعون قهر الشعب الفرنسي واقامة سلطتهم على ضحاياه ، فاذا هذا الشعب يقوّض في فيشي ثم في باريس نفسها ، هذه السلطة التي لم تكن لها سوى دعامة واحدة هي الجريمة . ولم يكن الخونة الذين اغرقوا بالدم ارض الوطن الفرنسي ، ولا اقول وطنهم لان فرنسا هي وطن عمالها وجنودها ومفكريها الذين يحررونها وليست وطن الطبقة التي تبيعها وتشتريها — لم يكن اولئك الخونة ليعتقدوا بان هذا الشعب الذي يحتقرونه

ويخافونه في آن واحد، سيعرف كيف يجاوب على الخيانة والجريمة بالوطنية والبطولة.. واذا العالم كله يسمع اخيراً هذا الجواب البليغ، جواب القوة التي يدعمها الحق، قوة الشعب الثورية الكبرى التي سيكون لها اثر كبير في تطور الحياة الدولية...

ليست السنوات الاربع بالعهد الطويل في حياة الشعوب، ولكن هذه السنوات التي تقضت على الشعب الفرنسي وهو رازح تحت نير العبودية، اذا لم تكن عهداً طويلاً في حياته فهي عهد فاصل في تاريخه، عهد حفر في قلبه الى الابد صورة الوطنية وصورة الخيانة، وجوه الوطنيين ووجوه الخائنين، فعرف من هم اصدقاؤه ومن هم اعداؤه، وعلى اساس راسخ من هذه المعرفة سيبني غداً مستقبله الحر السعيد.. لقد اراد اعداؤه الخارجيون والداخليون، المتّحدون في المنفعة والجريمة، ان يحوّلوا بحديدهم ونارهم، مهد الثورات والحريات، الى جحيم من العذاب والهول، فجعلوا من باريس مقبرة كبيرة يسودها الصمت الرهيب، لكن اعجزهم ان يجعلوا من شعب باريس، الشعب العامل المفكر، جثة هامدة.. ففي اعماق تلك المقبرة الكبيرة، خلف الجدران الصماء، وداخل الاقبية المظلمة الباردة، كانت الحياة تزخر، وتجيش، وتتحفز للوثوب... وذات يوم، هو اليوم التاسع عشر من شهر آب سنة ١٩٤٤، تدفقت تلك الحياة وطمت وانتصرت على الموت...

تلك هي روح الكومون، كومونة باريس، التي حسب

اسلاف لافال وبيتان انهم قتلوها في سنة ١٨٧١ ، اذ فتحوا ابواب العاصمة الفرنسية المحاصرة امام الجيش الالماني ، فاعمل معهم سيفه في رقاب عشرات الالوف من الجماهير الشعبية الثائرة .. والتي اراد لافال وبيتان وزملاؤهما ان يجهزوا عليها سنة ١٩٤٠، فمثلوا دور اسلافهم خير تمثيل .. ولكن روح الكومون لم تمت ، لانها خالدة لا تموت !

وعندما نذكر هذا الكفاح السري الرهيب ، لا بد من ان ننحني امام ذكرى شهدائه الميامين ، اولئك المناضلين الذين كانوا يعملون بعناد وصمت ، ويموتون لكي تحيا باريس ، اولئك الذين فضلوا ان يموتوا واقفين على ان يعيشوا راكعين ! اني لأفكر دائماً بهؤلاء الابطال وامثالهم ، الذين اثاروا اهتمامي اكثر من اي جماعة اخرى في هذه الحرب ، والذين علموني، مع الجنود الحمر والانصار الثائرين المناضلين في كل مكان ، معنى التضحية من اجل الوطن .. ومعنى العناد في سبيل حرية الوطن ! اولئك الابطال الذين احبوا وطنهم اكثر من اي شيء آخر ، والذين كان يحفزهم حبهم العميق للحرية ، الى النضال من اجل جميع الشعوب وجميع المضطهدين ، لانهم من اعرف الناس بان الحرية وحدة لا تتجزأ . اولئك الابطال ، الشهداء والاحياء ، الذين من اجلهم احب باريس !

اني لاذكر منهم على الاخص غابرييل بيري ، صديق العرب ، والمحامي اللبناني انطوان الحاج ، ورفاقهما الذين ماتوا لكي يهيئوا لاحفادهم اياماً تضحك وتغني . وان ذكراهم لواجبة

في ايام النصر ، لانها تذكّرنا بان دماءهم لم تذهب هدراً . لقد ضربوا بانفسهم مثلاً لغيرهم ، فعرفوا كيف يجدون الخلود في الموت . فالآن ، عندما تتردد اغاني الظفر في شوارع باريس ، تتردد فيها اسماء غابرييل بيري ورفاقه ، كأنها رايات حمراء ، رايات الحرية الظافرة .

باريس ، هذه المفخرة الكبرى من مفاخر الديموقراطية ، تصبح اليوم والى الابد ، قلعة من قلاع الحرية في العالم . ان باريس هي قلب فرنسا ، وفرنسا في نظرنا نحن الوطنيين السوريين واللبنانيين ، ليست اسماً مجرداً ، ليست جماعة فيشي وانصارهم واتباعهم والمتشبهين بهم ، ليست هذه الطغمة التي حاربت شعبنا وحاربت قضيته الوطنية ، والتي خانت شعبها وحاربت حريته واستقلاله ، بل هي الشعب الفرنسي الكادح ، هي عماله المناضلون ومفكروه الاحرار ، هي النائب الشيوعي غابرييل بيري ورفاقه الذين قاوموا هذه الطغمة الى جانبنا ، دفاعاً عن شعبهم ودفاعاً عن شعبنا ، لانهم يعرفون ان خصومنا هم خصوم لهم ايضاً ، ولانهم يؤمنون بان الشعب الحر لا يستعبد شعباً آخر ...

ان فرنسا التي نحبها ونتحدث عنها هي وطن مارا وروبسبيير وسان جوست ، هي وطن بيري وبيير سيمار . هي فرنسا الديموقراطية حقاً ، التي اعطت الارض للفلاحين ، واعلنت حقوق الانسان ، وحاربت في سبيل الحرية زمناً طويلاً ، والتي ستعالج في المستقبل بروح ثورية منصفة ، مشاكلها الكبرى

وعلاقاتها مع الشعوب . فالجماهير الفرنسية انما تناضل اليوم من اجل فرنسا الغد التي لن تكون كفرنسا الامس ، من أجل فرنسا الجديدة التي تنبثق بين انقاض العالم الرجعي القديم ، من اجل فرنسا التي تريد ان تعيش حرة في عالم حر وسعيدة في عالم سعيد . ان تحرير باريس الذي نحييه ونبتهج له ، ليس معناه ، ولا يمكن ان يكون معناه ، انتقاصاً من حقوق وطنية انتزعناها بنضالنا ، ولا رجوعاً الى عهود قديمة حاربناها وظَهَرْنا عليها ، بل هو خطوة الى امام في سبيل النصر على الهتلرية ، وفي سبيل حرية فرنسا ، وحريتنا نحن ، وحرية كل شعب شغوف بالحرية . فالذين احبوا ان يفهموا تحرير باريس على غير هذه الصورة قد اخطأوا كل الخطأ ، وباريس المحررة ستقنعهم بذلك في وقت اقرب مما يتصورون .

ان الجيش الذي حرر باريس ، هو جيش من نوع جديد ، قوامه العمال واحرار المثقفين ، جيش ليس على رأسه خونة من امثال بيتان ودنتز واستيفا وغيرهم من الرجعيين والمستعمرين ، ولكنْ فيه فرق باسم سان جوست وكومونة باريس وغابرييل بيري . ولهذا يرى احرار العالم في انتصار باريس ، اول خطوة عملية جريئة يخطوها الشعب الفرنسي لانشاء فرنسا جديدة ، يصنعها خيرة ابنائها ، ولا يكون فيها مكان للطغاة والمستثمرين . فالوطنيون الذين عانوا الاستعمار النازي وقاوموه ، والذين قاسوا اضطهاد الغستابو وناضلوه ، والذين انقضّوا على القلاع الهتلرية باجسادهم ، واضطروا بمعاولهم الدبابات الالمانية على التراجع —

لن يدعوا الشركات الاحتكارية تسلبهم ثمرة انتصارهم ، وسيكونوا ، في صراع الحرية والعبودية ، حرباً على كل استعمار واضطهاد .

لذلك يثير انتصار باريس أمل الشعوب ، جميع الشعوب ، التي لا تزال تعاني ما عاناه شعب باريس ، والتي تريد ان تتحرر كما تحرر احفاد الكومون . ويا له من درس عظيم القته باريس على الدنيا ، اذ أرتها أي قوة تؤلفها الجماهير الشعبية ، اذا ارادت وظلت راسخة في ارادتها ، وناضلت وكانت متحدة في عقيدتها ، مؤمنة بعدالة قضيتها ، مستعدة للتضحية في سبيل النصر .

٢ ايلول سنة ١٩٤٤

الزحف الى برلين

بعد خمس سنوات من محاولة التحكم في مصير العالم ، يخرج مصير المانيا الهتلرية من ايدي ابنائها، فتسمع زئير المدافع في بلادها ، وتذوق طعم العذاب الذي طالما اذاقته غيرها ، وتجني حصاد انتصاراتها الاولى هزيمة شنعاء .. بعد خمس سنوات من التدجيل والتضليل والكبرياء ، يتحدث غوبلز الذي طالما أباد في خطبه الجيش الاحمر وقضى على مقاومة الشعوب ، فيقول بصوت دامع : « ان طريقنا قد افضت بنا الى وهدة الحزن ، فلم يبق لنا سوى الدفاع عن انفسنا من الخطر المحدق بنا » .. بعد خمس سنوات من الحرب الصاعقة ينقلب الزحف الهتلري على العالم ، فاذا العالم يزحف الى المانيا والى برلين ..

الى برلين ... هذا هو اليوم شعار الاحرار في العالم ، يردده الجنود والانصار والجبهة والمؤخرة ، تردده الثاكلات والارامل ويردده الاطفال الذين ولدوا ليفرحوا فعاشوا تحت

سوط العذاب ، ترددة القارة الاوربية التي اجتاحها اعصار النازية والانقاض التي كانت معاهد وحدائق في بلاد السوفيات ، يردده بحارة طولون من قبرهم الرحب وتردده ملايين الضحايا التي يجهل اهلها ايان ترقد ! الى برلين ، تنادي لديشة المدينة التي زالت من الوجود . الى برلين ، تنادي باريس وفرصوفيا ولينينغراد التي عانت وانتصرت . الى برلين ، ينادي الجنود الذين يموتون شجعانا وهم في الطريق الى برلين ، والجنود الذين يواصلون الزحف اليها !

الى برلين ، وصمة العار في جبين القرن العشرين ، الى العاصمة الالمانية التي لم يعرف التاريخ دولة كدولتها في موتها حياة للاخرين .. ان طريقها حمراء ضرّجها الدم البرىء وغطتها جثث لا عداد لها .. هي طريق متشعبة تتصل بكل بلد اجتاحه الجنود النازيون . ففي كل بلد ترك النازي شاهداً على همجيته ، وارتكب اثماً يستحق شديد العقاب . وقد تنقضي اعوام طويلة على هاتيك البقاع ، لا يحرث الفلاح فيها ارضه الا وتطالعه من بطن الارض جماجم الضحايا تستصرخ العدالة وتستعديها على الباغي الاثيم . ان هذه الطرق المتشعبة تفضي كلها الى برلين ، وهي تزحف كلها الى وكر الوحش ، وتزحف عليها الوف المدن وعشرات الالوف من القرى التي عاث فيها النازي والتي عادت اليوم الى الحياة فهبت تقتص من زبانية الموت .. ولن يهدأ بال النسوة اللواتي اعتصمن في شعاب الجبال ، ولن تقرّ عيون الاطفال الذين شردتهم الحراب ، ولن يتعزى الرجال

عما لاقوا من اهوال ، ولن يسكن الشبان المناضلون الى احضان السلام ، الا اذا عرف الجميع انهم قد دفنوا مع انقاض بيوتهم وجثث ضحاياهم ، عصر الهمجية وعصر الاستعباد !

•

هناك اناس لم يعرفوا حتى الآن ما هي الحرب ، هذه الحرب . لم يعرفوا حتى الآن ان مصيرهم ومصير اطفالهم ، أياً كانوا واينما كانوا ، لا يزال متوقفاً على النتيجة التي تنتهي اليها الحرب الحاضرة بين قوى الحرية وقوى الاستعباد . ولعل فيهم من يهمه ان تطول الحرب مهما كلف الثمن ، او من يتمنى لو تنتهي كيفما انتهت . منذ ايام اخذ عليّ محام معروف اني وصفت النازيين بالوحوش ، واني اؤيد فكرة محاكمة المسؤولين عن الحرب ومعاقبة مسبيبها ومجرميها ، وراح — في ايلول سنة ١٩٤٤ — يتحدث عن المدى الحيوي .. محاولا تبرير جريمة البعض بجرائم الآخرين ، ناسياً انه من امة طامحة الى الحرية اذا اعترفت « بحق » الدولة القوية بافتراس الامة الضعيفة ، كان معنى ذلك انها تسلم عنقها لسكين الجزار ، جاهلاً ان اعفاء المسؤولين والمجرمين وخائني اوطانهم من العقاب هو تشجيع للمستعمرين على ان يركبوا الشعوب بصنوف العدوان والارهاب ، وتشجيع للمجرمين على ان يفتكوا بالضعفاء ويمثّلوا بالابرياء ، وتشجيع لخائني اوطانهم على ان يبيعوا شعوبهم لكل طامع مقابل دراهم معدودات !

نريد ان نقول مرة اخرى ان النازي ، وكل من يشابهه ،

ليس بانسان . وان الوحش يجب ان يعامل كوحش ، وان الحقد هو العاطفة الوحيدة التي يثيرها في النفس .. ان احرار العالم حاقدون على اعداء الانسانية واعداء الحرية واعداء التقدم ، وهم يفخرون بهذا الحقد .. واذا كان هناك من يفكر بمساومة النازيين وامكان اصلاحهم ، باعتبارهم اناساً كالآخرين ، فان احرار الشعوب لن يساوموا الوحوش ولن يهادنوها لانهم لا يسلمون بان قتلة الاطفال تعمر صدورهم عواطف بشرية . ومن اجل هذا نرى الجيوش السوفياتية لا تكتفي بطرد الجنود الالمان بل تحرص على قتلهم .. لقد ارادوها حرب ابادة فكان لهم ما يشتهون !

ان الشعوب التي تحب السلام تعرف ان من واجبها ان تكون شديدة في الحرب . وليس يعني النصر عند هذه الشعوب الخلاص من الكارثة كيفما كان وجه الخلاص ، بل يعني استئصال جذور الكارثة حتى لا تنبت من جديد ، كما نبتت في سنة ١٩٣٩ لانها لم تستأصل في سنة ١٩١٩ .. ان مهزلة الصلح الماضي لن تتجدد ، ولن ترضى الشعوب ان تذهب هدراً وجزافاً عشرون مليون حياة انسانية ازهقت في هذه الحرب ، وان تضيع الآلام التي عاناها عشرات الملايين من الناس في مختلف بقاع العالم . ومن ثم تعدى الهدف المنشود في هذه الحرب ، حد تحرير البلاد التي خضعت للنير ، واتجهت امال الشعوب الى القضاء التام على قوى الاستبداد ، وجعل هذه الحرب عبرة لمقبل الاجيال . ان برلين هي الهدف الذي تستهدفه الشعوب في نضالها من اجل الحرية والسلام ، فيجب ان تعاني العاصمة

الالمانية مثل ما عانته باريس واثينا ولينينغراد ، ويجب ان تتحطم الدولة القائمة فيها كيما تعرف الدول التي تسوّل لها مطامعها ان تسير سيرتها وتجور جورها وتعتدي مثل عدوانها ، ان الشعوب قد اصبحت من اليقظة والوعي والقوة بحيث لن تغفر لمجرم جرمه ، وان اقل ما ينتظرها هو المصير الذي صار اليه طغاة برلين . ويجب ان يعاقب خائنو اوطانهم في البلدان المحتلة ، اولئك الذين لم يتحرّجوا من ان يمدوا يد التعاون الى العدو الدخيل ، يجب ان يعاقَبوا عقاباً شديداً لا رحمة فيه ، لكي يعرف امثالهم من الخونة اي مصير ينتظر خائني شعوبهم واعداء وطنهم ...

هذه هي ارادة الانسانية التي تريد ان تعيش في سلام . هذه هي ارادة الاحرار الذين يريدون القضاء على الطغيان . ان الدم الذي جرى من سهول فرنسا الى حقول اوكرانيا لا يزال حاراً ، وهو يستصرخ جنود الحرية ان لا يضعوا سيوفهم في اغمادها حتى تتحطم عروش الاستبداد . وهؤلاء الجنود البواسل قد سمعوا الصرخة الحارة ، صرخة الدم . وهم يتحرقون شوقاً الى ابادة قتلة الاطفال ، وسيتعقبون هذه الوحوش الى وكرها في برلين . ولن تنطفىء ابداً هذه النار التي تضطرم في صدورهم حقداً على الطغيان والاستعباد . انها لن تنطفىء ابداً هذه النار المقدسة ، بل ستلهب الاجيال الصاعدة حقداً على كل طغيان وكل استعباد .

٢٣ ايلول سنة ١٩٤٤

حَرْبُ الشعُوبْ

في هذه الحرب ، تجلت حقيقة صارخة – والحقائق اشياء عنيدة كما يقول ستالين – وهي ان الشعوب قد اضحت فيها ، بعد وعيها الاجتماعي ونضجها السياسي، العنصر الرئيسي والقوة الراجحة..

كانت الحرب تنتهي من قبل ، بمعركة عسكرية فاصلة ، يسيطر بعدها الجيش المنتصر على الدولة المنكسرة . اما الان فقد اصبح على الفاتح ان يجابه ، بعد انتصاره العسكري ، معركة داخلية أروع هولا وأقوى أثراً ، هي المعركة الشعبية المجيدة التي اعتدنا ان نسميها : المقاومة .

وقد ساهمت في خلق هذه المقاومة عوامل كثيرة ، منها طبيعة الحرب الحديثة التي تتصل بالجماهير مباشرة فتجند ملايين الرجال منها ، وتعبىء ملايين اخرى للعمل من أجل الجبهة ، وتُعرّض المدنيين انفسهم لخطر الغارات الجوية، وتهبط بمستوى الحياة المادية والادبية لدى افراد الامة جميعاً. ومنها وحشية الاستعمار

الهتلري التي لم يُعرف لها مثيل في التاريخ ، والتي تقوم ، فضلاً عن اساليبها الاجرامية في البطش والنهب ، على نظرية عنصرية تحتقر الشعب المغلوب وتبرر للفاتح استعباده والتمثيل به . ومنها ايضاً المستوى الذي بلغته الشعوب الاوربية من النضج السياسي والوعي الاجتماعي ، والذي عرفت فيه ان معركة الوطن هي معركة الشعب الذي يؤلفه ، وعلى هذا الشعب ان يذود عنه عندما يسلمه الخائنون ويتخلى عنه الجبناء المترددون والساسة المحترفون . ومنها أخيراً ، وقد يكون أولا ، المثل العظيم الذي ضربه الشعب السوفياتي اذ دافع كل فرد من ابنائه ، عن كل شبر من اراضيه ، دفاع الابطال الميامين .

وليس صحيحاً ان أثر هذه المقاومة الداخلية التي تقوم بها الجماهير ، مقصور على تأخير اعمال العدو وتعجيل انتصار كان من الممكن احرازه بدونها ، فضلاً عن ان تقديم عمل عسكري او تأخيره ، لا يعني تغيير الوقت المقدّر له فحسب ، بل يؤدي الى تغيير مفعوله ونتيجته نفسها . فهذه المقاومة التي رفضت بأباء ان تقبل عار الهزيمة ، وان تكتفي بالنحيب على قبر الوطن .. ان هذه المقاومة التي تمردت عندما استجاب لارادة العدو الجبناء المستسلمون والخونة التعاونيون ، والتي ناضلت في عصف الاضطهاد والجور موجة الاستخذاء وعاصفة الهلع ، هي التي اعادت الى الامة ثقتها بنفسها والى الوطن شرفه المضيع .

تحت نير الارهاب وسوط العذاب ، بدأت الجماهير الشعبية التي أذهلتها الكارثة حيناً من الزمن ، تستعيد وعيها وايمانها

بانتصار الحرية . ولكي تتحرك هذه الجماهير وتنتظم في النضال الدامي الى النهاية ، كان يجب ان يكون لهذه الحرب هدف جدير بأن يزيل ترددها ويثير حماستها ، فكان الهدف الطبيعي الذي نصبته المقاومة امام جماهير الشعب : بناء عالم ديموقراطي صحيح لا يكون لها في ظله مقام الاجير ، بل تحكم فيه نفسها بنفسها وتعيّن مصيرها بملء حريتها واختيارها . اذ لم يكن من المستطاع احياء أمل الجماهير بالمستقبل ، وتجنيدها للنضال من اجله ، اذا عرفت ان دماءها ستراق من اجل النظام القديم ، نظام الرجعية والعبودية ، الذي يحرمها حقها في الحياة ويسوقها الى ساحات الحروب حيث تُهدر ارواحها في سبيل مطامع المستعمرين والمستثمرين .

كان النضال في سبيل الوطن ، لا يعني لدى تلك الشعوب المضطهَدة ، تحريره من نير الغزاة وحسب ، بل تحريره من نظام المطامع والدسائس الذي قاده للوقوع تحت هذا النير ، نظام الأخطاء التي ما زالت تُرتكب بأصرار منذ سنة ١٩١٩ لكي تؤدي الى كارثة سنة ١٩٣٩ — لان هذا الوطن اذا ظل كما كان ، فسيظل دائماً عرضة للنكبات التي اصبحت من مستلزمات نظامه القديم . وحتى الشعوب المحاربة خارج القارة الدامية ، التي لم تعان اهوال الاستعمار النازي لكنها عانت سوط الحرب الموجع الموقظ ، لن ترضى بالعودة الى ذلك النظام الفاسد دون ان تحاول تهديمه او اصلاحه على الاقل ، وهذا مؤتمر العمال البريطاني يقول : اننا لا نتوخى هزيمة المانيا ودحر

اليابان ، لكي نعيد الى بريطانيا صورتها التقليدية ، ولكي نعبّد الطريق امام الرأسمالية الاحتكارية التي تقوم على مبادىء الفاشستية لا على مبادىء الديموقراطية .

لقد اعتزمت الشعوب ان تحرر اوطانها كلها ، اراضيها وقوانينها . انها تريد ان تستعيد اوطانها لكي تجددها ، لكي تعيد بناءها على اسس ديموقراطية صحيحة . بهذه الروح بدأت حركة المقاومة تتسع في كل بلد عاثت فيه نعال النازي ، وتزخر ، وتجيش كالمرجل . وفي احتدام معركة الحرية ، بينما الوف المناضلين وعشرات الالوف منهم ، يموتون كل يوم أرهب الميتات ولكنْ اشرفها ، كان اخوانهم في السلاح ، المهددون في كل لحظة بالمصير نفسه ، يتابعون نضالهم العظيم .

في ذلك الليل المطبق على تلك الاوطان السجينة ، كان اولئك الابطال ، اولئك الشهداء والمستشهدون ، رمزاً حياً ودليلاً صارخاً على ان ثمة اوطان جديدة كانت تلد تحت الارض ، كانت تفكر وتناضل ، في الحرمان والعذاب ، بحيوية خالقة ، ببطولة لا مثيل لها ، كالاضطهاد الذي تجابهه ، لا يمكن وصفها والاحاطة بها . وهكذا اصبحت المقاومة ، هذه المنظمة الشعبية والحالة الفكرية في آن واحد ، الطليعة العاملة والمفكرة التي بها يبدأ المستقبل ، والتي منها تنبثق الوثبة الواعية الرامية الى اتحاد جميع القوى السليمة في سبيل انشاء ديموقراطية جديدة ، ديموقراطية ثورية . ان نوراً ساطعاً كان ينبجس في ذلك الليل البهيم ، ان مولوداً عظيما كانت تتمخض به تلك الحركة الولود .

فتهيئة الجماهير للمقاومة ، واشراك ملايين الناس في النضال من اجل التحرر الوطني ، كانت تعني انماء الوعي السياسي في الشعب كله .. كانت تقضي ان يتطور في المصانع والمزارع ، وفي المكاتب والمدارس ، وفي كل حي وكل بيت ، وعي المواطن ، وتعلقه بالحرية ، وكفاحه من اجلها .. كانت تتطلب تثقيف هذا المواطن بروح الكفاح وتدريبه على اساليبه العملية .. بحيث شعرت الملايين انه قد انبثقت فيها وحولها ارادة ثورية ترمي الى بناء وطنها وبناء العالم كله ، على اسس جديدة هي اسس الحق والعدالة والمساواة . ولم يكن ممكناً في الواقع ، ان يشترك ملايين من الناس في شعور واحد ، وان تجتمع قلوبهم على نضال واحد ، ثم تبقى الارادة التي تصدر عنهم ، ارادة عتيقة لا تمثل سوى ذلك الماضي الزائل ، ولا يمتد منها لهيب ثوري جديد . ان هذه الملايين التي اتحدت ستبقى متحدة ، ليس في معركة النضال من اجل تحرير الوطن وحسب ، بل في هذه الارادة الفولاذية التي تبغي صنعه من جديد .

تلك حقيقة واقعة ، عنيدة ، لا يمكن انكارها او تجاهلها ..

ولا ريب ان هناك من يقول الان : الا تباً للحقائق الواقعة !

اجل ان هناك من تسوءه هذه الحقيقة ، فيحاول انكارها ، ويريد من الجماهير التي تمثلها ان تتخلى فجأة عن المهمة التي اخذت على نفسها تحقيقها ، والتي انصهرت فيها واصبحت جزءاً منها ، خلال اربع سنوات من النضال المستميت .. يريد منها ان

تتنازل عن الاهداف التي من اجلها حاربت هذه السنين الطوال ، وفي سبيلها ضحت وتعذبت ، وسفكت دماءها (١). يريد منها ان لا تنشىء حكومة او تشترك في حكومة تعرف حاجاتها وتحقق رغباتها ، وتعمل معها ، وبروحها ، على تطهير بلادها من بقايا الفاشستية ، ومن جذورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل ان تستقبل حكومة رجعية لا تستمد قوتها من ثقة الشعب بها بل من تأييد دولة اجنبية لها ، حكومة لم تكن مع الشعب في ساعات شقائه ونضاله ولكنها تريد ان تسلبه ثمرة جهاده وانتصاره ، حكومة لم تحاول ان تفهم روح الشعب ولا هي بقادرة على فهمها لانها تمثل روحاً تناقض روحه ومصلحته ، ولم تحاول ان تتعاون مع الشعب لانها تخافه وتخشى من يقظته على بقائها وسيطرتها وعلى امتيازات الفئات التي تمثلها .

بكلمة واحدة : ان هناك من يريد من الجماهير ان تتنازل عن الوطن الذي حررته بدمائها والذي تريد ان تعيد بناءه بعرق جباهها . ثم يبادر ، بحجة المحافظة على النظام ، الى مهاجمتها والتنكيل بها ، والعالم كله يعرف انها اول من يريد النظام ، ولكنها لا تريد نظام الفوضى الذي ساد قبل الحرب وقاد اليها ، بل نظاماً صحيحاً يقوم على اطلاق الحريات لا على تقييدها ، وعلى الانتصار للديموقراطية لا على محاربتها ، لان

---

(١) كتب هذا المقال لمناسبة الازمة السياسية في اليونان وفي اكثر البلدان الاوربية المحررة .

النظام ، بالحقيقة ، هـو السيادة الشعبية ، هـو احترام رأي الاكثرية ، وتحقيق امانيها ، والعمل معها على تطهير البلاد من عوامل الفساد وعناصر الافساد .

ولكن هيهات ! فمهما يكن مصير المعارك السياسية او العسكرية الدائرة اليوم في البـلاد الاوربية ، فان النصر لن يكون في النهاية ، الا لقوى الحرية والنور على قوى الظلام والعبودية ، لارادة الشعوب على ارادة المستعمرين والمستثمرين اياً كانوا واينما كانوا .

٢٠ كانون الاول سنة ١٩٤٤

ثلاث سنوات من النضال

منذ ثلاث سنوات ، في ذلك العهد الرهيب من الحرب ، عهد الانتصارات الفاشستية الصاعقة ، لما كنا نرى الظلام الزاحف من الغرب يتسلل الى كثير من القلوب في بلادنا ، ولما كنا نسمع فيها ، بمثل وقْع السوط على صفحة الوجه ، من يتشدق بان هتلر مقبل الى وطننا بين ليلة وضحاها ، وان بين ظهرانينا من يستعد لاستقباله ! تنادينا نحن ، لمعاودة نضالنا في سبيل شعبنا ، لا يثنينا ان اكثرنا كان يعاني الى اسابيع خلت ، السجن والارهاب ، وان حركتنا كانت في اعين الاكثرين جنوناً مطبقاً . كنا نعرف ان ذلك الجنون – اذا كان جنوناً حقاً – هو الشرف ، واذن فهو الواجب . وكان هذا يكفي بحد ذاته ليضاعف ثقتنا بصحة نضالنا . فنحن نعرف ان الشرف يُكلف غالياً ، وكثيراً ما يُبذل في سبيله عرق الجبين ودم القلب . ولكنْ كان ثمة عامل آخر يعزز فينا تلك الثقة ، هو

ايماننا ، رغم جميع المظاهر المضللة ، بان هتلر منكسر حتماً ، وبان قوى الحرية لا بد من ان تنتصر ، ومن واجبنا نحن ان نساهم في انتصارها بكل ما نملك من قوة ومن تعلق بحقوقنا الوطنية .

لقد كان كبيراً على نفوسنا ان تستسلم بلادنا للطاغية فيحصد شبابها ، ويدوس تراثها ، ويسومها الخسف والهوان . فرحنا نعقد الاجتماعات ونصدر النشرات ، نبين فيها الدوافع الوطنية التي تحملنا على النضال ، والاسباب المادية والمعنوية التي لا بد من ان تسير بهتلر وبمبادئه الى القبر . ولبثنا زمناً طويلاً ونحن اشبه بكساندر ، في اساطير الاغريق ، اوتيت معرفة الآتي ولكنها كانت تقول للآلهة غير ما يريدون سماعه منها فكانوا لا يبالون بها ولا ينصتون اليها . ولا ازال اذكر كيف كان الناس – الا من سكن منهم الى المنطق او فهم واجبه الوطني على وجهه الصحيح – يستمعون الى خطبنا في المدن والقرى التي نهدنا اليها ، في ذهول كبير ودهشة عظمى ، امام هذا التحدي الغريب الذي يؤكد القائمون به ، والنازية في اوج انتصارها ، ان النازية ستنهزم ، وان الارهاب لا يمكن ان يُرهب المناضلين من اجل الحرية والعدالة .

واليوم ، بعد ثلاث سنوات ونيف ، تجيب الوقائع .. لقد ظهر منذ وقت طويل ، كذب الاسطورة التي زعمت بان « المانيا لا تُغلب » ، تلك الاسطورة التي نسجها الخونة في بلدان اوربا ليسوّغوا بها خيانتهم ، والتي ما لبثت ان تحطمت

امام مقاومة الشعوب السوفياتية ، امام انتصارات ستالينغراد واوريل وانتصارات افريقيا وايطاليا ، وهي تذوب اليوم في الاراضي الالمانية نفسها .

لقد كان ثبات الجيش الاحمر في وجه الفاشستية الزاحفة بحديدها ونارها ، بعد ان اكتسحت اوربا كلها ، النور الذي بيّن في دياجي الشك ، الوجه الاضح من وجوه القوة .. كان عنواناً لانتصار الحرية على العبودية ، وآية على ان حكومات الشعوب أقوى من حكومات الشركات الاحتكارية . كانت المانيا مع اتباعها ، ومع الملايين العشرة الذين استرقتهم من شعوب اوربا ، ومع الصناعات التي استولت عليها في القارة الاوربية كلها ، أقوى بأساً واكثر عددا من جنود الحرية ، لكن القيم المعنوية التي كان يتمتع بها الجيش الاحمر كانت أقوى من القوة واكثر من الكثرة . ان عبادة القوة تزعزعها أول صدمة تجابهها ، اما التعلق بالسلام والحرية فهو يزداد في ظل الخطر متانة وعناداً . لقد كنا نرى قوة الفاشستية المادية كما يراها الاخرون ، لكننا كنا نرى ايضاً جانب الضعف الروحي فيها ، وهو الجانب الذي غابت رؤيته عن الاخرين . كانت الفاشستية تقوّي سلطانها بالارهاب والارهاب يضعفه ويلاشيه ، وتقيم مجدها على الانقاض والدماء وهد مجد كاذب مفتعَل وشيك الانهيار . فالمانيا الهتلرية وايطاليا الفاشستية واتباعها ، لم تكن بالحقيقة ، سوى جيش مدجج بالاسلحة تدفعه رغبة مدمرة عمياء هي رغبة السيطرة والنهب ، اما الاتحاد السوفياتي

فكان شعوبا تجيش بالحياة وتزخر بكل ما يجمّل الحياة ويرفعها وينميها ، ومن هنا كان ايماننا الراسخ بانتصار الحرية على العبودية.

ثلاث سنوات مرت ، بمواكب دموعها وآلامها ، وأصبح ربيع السنة الرابعة قريباً . لم يبق من شك في ان الفاشستية قد اقتربت كثيراً من نهايتها المحتومة ، لكن الانتصار على الفاشستية لم يبق يعني لدى الشعوب ، وما احسب انه كان يعني لدى الاحرار في يوم من الايام ، انهيار المانيا انهياراً عسكريا فقط . فثمة امور كثيرة يجب ان ترافق هزيمة المانيا ، حتى يصبح الانتصار عليها انتصاراً حقيقياً لفكرة الحرية ودرساً عمليا لكل طاغية في العالم .

كان هتلر يفاخر بانه يعمل بلا ضمير ، فيجب ان يصبح عبرة لكل من يريد العمل بلا ضمير ، يجب ان تتطهر الارض الى الابد من الفكرة الفاشستية الاستعمارية الطاغية أينما وجدت . يقول الالمان ان عام ١٩١٨ لن يتكرر ، أجل ، لن يتكرر ذلك العام المشؤوم ، لان المانيا استطاعت ان تحتفظ فيه بملاك جيشها ، وان تنقذ اوساطها العسكرية والسياسية المسؤولة عن الحرب ، وان تبقي على اسلحتها ومصانع الاسلحة فيها . اما الان فيجب ان تتحطم هذه البؤر كلها ، وان يعاقب المسؤولون كلهم ، ولا سيما طغاة المال واقطاب الصناعة الذين ليس هتلر وهملر وغورنغ الا كلاب حراسة لديهم . تقول الصحف الالمانية : « لقد كنا كرماء كل الكرم نحو الشعوب التي سيطرنا عليها ، وكنا لطفاء جداً ، ومن الصعب علينا ان نصلح الان هذه

الاخطاء » ! ويقول احد الضباط الالمان : « على ابني ويلهلم ان يكون اقل انسانية » ! فيجب ان تُستأصل منذ الآن جميع الاسباب التي يمكن ان تساعد ويلهلم واترابه ، على اعلان حرب جديدة ، يكونون فيها اقل انسانية من اباءهم ، من قتلة الاطفال الذين جمعوا بين التكنيك الحديث ووحشية العصور القديمة ، الذين درسوا فى المعاهد والمختبرات كيف يعذبون الارواح البريئة ، وكيف يحرقون الاجساد في افران الموت ثم يرسلون رمادها سماداً الى المانيا .

ليس من انسان ، الا اذا كان شبيهاً بهؤلاء الوحوش او يريد ان يتشبه بهم ، يستطيع ان يتنفس بارتياح قبل ان يعاقَبوا وان يُطهر وجه الدنيا من بقاياهم ، وليس من انسان — حقيق بان يسمى انسانا — يجرأ على طلب الرحمة بهم والاشفاق عليهم . ان ملايين الاطفال الذين قُتلوا او عذبوا او ماتوا جوعاً ، او فقدوا آباءهم .. وملايين الشيوخ الذين أُهينوا وشردوا ، وماتوا تحت اعقاب البنادق ، أو في زوايا منسية دون ان يغمض احد اجفانهم الكليلة .. وملايين النساء اللواتي حُرمن اباءهن وازواجهن ، او قضين في ساحات الحرب او في معسكرات الاعتقال او في ذل العبوية .. وملايين الرجال الذين قُتلوا بدلا من ان يتمتعوا بالحياة ، والذين خُرّبوا بدلا من ان يعكفوا على البناء .. ان الفصول التي تتابعت في حداد الحرية دون ان تفجّر نبات الارض وزهرها ، ودون ان تثير اي عاطفة انسانية في النفوس الغارقة في الظلمة ، او تحرّك نبض الدم الذي شح في عروق الملايين الذين لم

يموتوا ولكنهم لم يبقوا قادرين على ان يحيوا حياة حقيقية — ان هؤلاء الاشخاص وهذه الاشياء، ان الحق الذي داسته النعال، والعلم الذي أُهين وعُذب، والكرامة الانسانية التي تمرغت في الوحل — تطلب كلها الاقتصاص العادل من المجرمين! وها هي العدالة ذاهبة الى المانيا مع حراب الجيش الاحمر الزاحف من الشرق، وحراب الجيوش الاوربية الزاحفة من كل صوب، فلن ينجو المجرمون من محكمة الشعوب، ولو كان للمرء ان يموت اكثر من مرة لوجب ان يموتوا بعدد ملايين الضحايا التي قتلها نظامهم الجائر.

وهذا النظام الذي تصفه اطلال اوروبا اصدق وصف، يجب ان تلفظه الارض، وان ينبو به كل مكان يحاول ان يلوذ به. ان النظام الفاشيستي ليس مسألة داخلية لدولة ما، فيجب ان يحارب ليس فقط في الدول التي تتبناه مثل اسبانيا والارجنتين بل في كل بؤرة يجد فيها ملاذاً، وفي كل شخص سرت اليه عدوى هذا الوباء او يمكن ان تسري اليه، ولا سيما الاوساط الرجعية الاستعمارية التي خانت مصالح اوطانها وتعاونت مع هتلر ضد شعوبها في اكثر البلدان الاوربية.

وقد كان الظن بالخائنين ان واحدهم سيخبىء وجهه من العار، كذلك الهالك بوكا الذي مر به دانتي في قرار الجحيم، حيث يشقى خائنو اوطانهم واصدقاؤهم والمحسنون اليهم، فداس وجهه دون ان يشعر به، فصاح بوكا وهو يبكي « لمَ تدوسني وتقلقني » فقال الشاعر « قل لي من انت، فانا لحسن حظك

من الاحياء ، ولسوف ابعث ذكراك في الدنيا » فقال الهالك « على النقيض يا صاح ، فاني اريد ان اكون نسياً منسياً » فأمسك دانتي بغدائر بوكا وهتف به « اجب من انت او استأصلت شعرك » فقال خائن قومه « افعل ما تشاء ، فاني لست مجيبك ، ولست بمريك وجهي ، ولو دستني بقدمك الف مرة » .

كان الظن بالخائنين ان واحدهم سيخبىء وجهه من العار ، فاذا بهم قد بلغوا من صفاقة الوجه حداً يريدون معه ان يجدوا مسوّغاً للخيانة الوطنية ، ولم يعدموا فريقاً من زملائهم ، ممن لم تفضحهم الحرب كما فضحت الآخرين ، يعطفون عليهم ويدافعون عنهم . ولكن عبثاً يحاول جنود الاستبداد ، فقد كشفت الحرب عن جواهر الاشياء ، فشمل الوعي كافة الشعوب ، وظهرت الرجعية الاستعمارية على حقيقتها ، فعرف الناس كلهم دوافع المؤامرة التي قامت بها منذ مؤتمر مونيخ ، الى محاولات التسوية مع هتلر ، الى التعاون الصريح مع اعداء الاوطان التي تنتسب اليها اسماً لا روحاً . عبثاً يحاول جنود الاستبداد ، فان تضحيات الشعوب لا يمكن ان تضيع ، وان القوى الحرة ، التي صمدت امام الارهاب الهتلري وظهرت عليه ، تستطيع ان تصمد امام مقلدي الهتلرية وان تنتصر عليهم ، وانها لخليقة ، اذا شاهدت السياسيين يتحولون الى مقامرين ، ان تسحق مائدة اللعب واللاعبين .

ونحن الذين آمنا بقوة الحرية ووثقنا بانتصارها في عهد الهجمات النازية الصاعقة ، وحين كانت قوى العبودية على ابواب

بلادنا ، لا تستطيع دسائس الرجعيين الاستعماريين ، الذين لا يريدون ان يعرفوا ان عهدهم قد زال وان عصراً جديداً قد بدأ ، ان تنزع ثقتنا بالشعوب المناضلة من اجل الحرية في مشرق الارض ومغربها ، وايماننا بان الظفر محتوم لهذه الشعوب في نضالها المجيد . ان النور الذي سطع في ظلمة العالم ، والذي يزداد تألقه سطوعاً كلما اقتربت الفاشستية من نهايتها ، لهو نور الحياة وارادة الحياة . فعبثاً يقف المستعبدون امام تيار الحرية لانه تيار الحياة ، وانه ليستحيل ان تسلّ الشعوب ثمرة انتصارها الى المستعبدين ، فيرجع امرها كما بدأ ، وترضى بان تخلص من تضحيات الحرب الى العودة لخدمة اسيادها وصنع قيودها ، وتتخلى عن مثلها العليا في العدالة والمساواة والحرية لتستمتع بعدل المساواة في الظلم .

ان ذلك السراج القديم قد نضب زيته وعما قليل ينطفىء فتيله . لقد استنفد اصحابه اكثر محاولاتهم ليحموا انفسهم من حكم التاريخ . وان الايدي التي كانوا يخنقون بها ضحاياهم قد بدأت تتصافح . لم يبق في ميسور احد ان يقول ان من حقي ان اسرق لان بيدي سلاحاً . ولم يعد ممكناً ان تظل شريعة اللصوص دعامة للمدنية . وها هي ملايين الناس ، من جميع الشعوب ، تسير في حشد عظيم ، نحو حياة حرة جديدة .

ولقد تعلمنا خلال هذه الحرب معنى الحرية . عرفنا ان الحرية لا يمكن ان تعيش بدون الديموقراطية الصحيحة ، وان الديموقراطية والوطنية صنوان لا يفترقان فليس من وطني

صحيح من ليس ديموقرطياً حقاً ، وان الشعب هو القوة الاساسية في النضال من اجل الحرية فلا يمكن بعد الان تجاهل ارادته وانكار قوته .

ان قوى الشعوب السليمة ، التي ولدت في غمرة النضال من اجل اوطانها ، هي التي ستصنع بيدها ، وحسب مشيئتها ، مستقبل الانسانية . وفي العالم الذي تبنيه الشعوب ، لا يكون ثمة مستعمرون ، اذ لا تكون هناك شركات احتكارية . ومن اجل هذا نستقبل العام الجديد بثقة اكبر من قبل وايمان ارسخ بمستقبل الحرية .

•

ثلاث سنوات مرت ، كانت ميتة اكثر من الموت وحية اكثر من الحياة ، ولكن تباشير العام الجديد تحمل معها تباشير الظفر . وها هي جيوش الحرية تزحف لترفع علم النصر على برلين ، فتضطرب اغلال العبودية في جميع الاصقاع لزحف هذه القوى الجديدة التي تزرع في حقول المعارك سلام الغد واخوّة العالم الجديد .

سنوات رهيبة تقضت على الانسانية فعلمتها قيمة حياة الانسان ، لكنْ علمتها ايضاً ان تكون اكثر سخاء من اجل حرية الانسان .

ايتها الانسانية المعذبة ، ان دماءك ستسيل ايضاً من اجل معركة الحرية ، ولكن .. ربما للمرة الاخيرة .

في ١ كانون الثاني سنة ١٩٤٥

جيش السلام والحرية

لا يزال الجيش الاحمر ، المنطلق بشجاعة لا حد لها ، والمزود بأحدث المعدات الحربية وارقى المعارف العسكرية ، يلاحق القطعان الهتلرية الهاربة في اربع مقاطعات المانية ، منزلا بها هزيمة بعد اخرى ، مواصلاً زحفه المجيد الى برلين .

ان هذا الجيش الظافر ، الزاحف زحف الجبابرة الميامين ، والحامل على حرابه القصاص العادل لقتلة الاطفال ، والحرية المقدسة للشعوب المضطهدة ، هو احدث الجيوش التي تحارب المانيا الهتلرية ، فهو في هذه الليلة العظيمة (١) يكمل سن السابعة والعشرين من عمره ، وما اجمل سن السابعة والعشرين ، سن الفتوة والبطولة والمروءة ...

هو ابن الثورة الاشتراكية وقواها السليمة الحرة ... ففي

---

(١) اذيع قسم من هـذا الفصل من راديو الشرق في مساء ٢٢ — ٢٣ شباط سنة ١٩٤٥ .

اوائل شباط سنة ١٩١٨ ، وقد تم انتصار السلطة السوفياتية على خصومها بفضل بسالة القوات الثورية المرتجلة وفرق الحرس الاحمر ، هاجمت الجيوش الالمانية هذه الدولة المسالمة الناشئة ، فكان عليها ان تنشىء قوة نظامية تحمي الثورة من اعدائها في الداخل ومن القوى الاجنبية المتربصة لها او المغيرة عليها . وفي اليوم الثالث والعشرين من شباط في تلك السنة ، احرزت وحدات الحرس الاحمر انتصاراً كبيراً على الجيوش الالمانية في ضواحي نافرا وبسكوف فكان ذلك اليوم من الايام الخالدة في تاريخ الانسانية ، فيه ولد الجيش الاحمر ، اول جيش انشىء للسلم لا للحرب وللحرية لا للعبودية .

وقد اتفق لذلك الجيش الناشيء يومذاك ، مثل ما اتفق لهرقل ، بطل الابطال ، اذ تسللت الافاعي الى مهده لتفتك به قبل ان ينمو ويشتد ساعده ، ولكن يدي هرقل كانتا قويتين منذ ابصر النور ، وقد استطاع ان يقبض بهما على اعناق الافاعي المحدقة به فيتقي خطرها ويصرعها . كذلك زحفت الجيوش الاجنبية شطر الجيش الاحمر منذ مولده لتبطش به ، فخاض معارك خطيرة اكتسب فيها تجارب كثيرة ، وانشأ ملاكاً قديراً ، وابدع اساليب جديدة في الفن العسكري ، وخرج منها متوجاً باكاليل الانتصار .

ودرجت الدولة السوفياتية بعد ذلك في مضمار التطور وقد ذللت مصاعبه وراضت سبله ، ودرج الجيش الاحمر معها يقوى بقوتها ويرقى برقيها . كان الاتحاد السوفياتي ، ولا يزال ، بلاد

السلام والحرية ، لكنه كان يعرف ان السلام والحرية بحاجة الى جيش قادر على حمايتهما ، فكان حريصاً على تعزيز قوته بانماء جيشه الاحمر وتثقيفه وتزويده بالمعدات الحربية الحديثة .

ولم تنقض خمس وعشرون سنة ، حتى اضطر هذا الجيش الناشىء ان يخوض اعظم حرب عرفها التاريخ ، ويجابه اكبر آلة عسكرية ميكانيكية . فقد انقضّ الجيش الالماني على الاتحاد السوفياتي ، بعد ان بسيطر على اوربا كلها ، وسخّر قواها المادية والبشرية لخدمة جهازه الحربي ، واستطاع ، بفضل المفاجأة التي باغت بها خصمه ، وبقذفه في الميدان ١٧٠ فرقة من فرقه المختارة ، تدعمها قواته الميكانيكية المصفحة والقسم الاكبر من طيرانه ، ان يتوغل في الاراضي السوفياتية وان يبلغ منطقة موسكو بعد قتال عنيف ، ضحى فيه خلال شهرين بأكثر مما خسره خلال سنتين كاملتين من حربه في اوربا .

•

وطالت معركة موسكو اكثر مما كان يتصور الخبراء الالمان ويقدرون ، وتفانى ابناء موسكو في الدفاع عن مدينتهم الحمراء ، وتطلعت الدنيا الى عاصمة الحرية ، الى أم النور وفرح الارض ، تخشى ان ينطفىء نورها ويزول فرحها . لم يبق في العالم انسان حر لم يشعر بالقلق يعصف بنفسه ، لان كل حر في العالم كان يشعر بان في موسكو قطعة من قلبه ومستقبله . وفي هذه الموجة من القلق العام ، كانت موسكو

وحدها هادئة وباسمة امام الخطر المتعاظم يوماً بعد آخر ، وقد اقسم ابناؤها ، المخلصون لتقاليدهم الثورية ، اما ان ينتصروا او يموتوا ، ولكنهم كانوا لا يتكلمون الا عن الانتصار .

وفي اوائل تشرين الاول سنة ١٩٤١ شنت المانيا على موسكو هجوماً جديداً ، حشدت فيه جميع ما لديها من عتاد وقوة ، وقال هتلر الذي كان يقود الحملة بنفسه : « لقد أنجزت استعدادات ما كان يمكن ان تخطر على بال انسان ، وقد وُضعت هذه الاستعدادات وأُحكمت ، في دقائقها وتفاصيلها ، لكي توجه الآن الضربة المميتة الى العدو » . وساد الاوساط الالمانية يقين بان هذه الضربة ستقضي قضاء مبرماً على قوة الاتحاد السوفياتي ، وتُجرده من القدرة على القيام بأي عمل عسكري . وكانت الدهشة عظيمة ، لما وقف ستالين يخاطب المواطنين السوفيات ، وقد بلغ الهجوم الالماني ذروته ، بقوله : « ايها الرفاق ! ان العالم يرى فيكم القوة القادرة على ابادة قبائل الغزاة واللصوص الالمان . ان شعوب اوربا الرازحة تحت نير المجتاحين الهتلريين تتطلع اليكم وتعتبركم محرريها . ان رسالة تحريرية عظيمة تقع على عاتقكم فكونوا بها جديرين » . ولكن الدهشة ما لبثت ان زالت لما انقلب الدفاع السوفياتي بغتة الى هجوم ساحق على طول الجبهة ، وكان هذا الهجوم نذيراً بانهيار الجهاز الحربي الالماني في هذه المنطقة كلها ، بعد معركة عنيفة استنفدت قوته وجهده طوال سبعين يوماً ، فبدأت اذاعة برلين تشكو من الطقس السيء ، وتحدث الناس عن

هذه المعجزة متسائلين عن عناصرها الحقيقية ، وكتب اهرنبورغ: « لا نقول ان معركة موسكو كانت معجزة ، كلا ، ان المعجزة هي شعبنا ، وهذه المعجزة ما زالت تنمو في نفوسنا منذ ربع قرن : لقد وثقنا بالانسان ، فانقذ الانسان موسكو »

٥

وفي صيف ١٩٤٢ حشد هتلر قواه مرة ثانية وقذف في جبهة واحدة ١٧٩ فرقة المانية و٦١ فرقة من البلدان التابعة له ، واستطاع ، نظراً لفقدان الجبهة الثانية في الغرب ، ان يبلغ ضفاف الفولغا وان يحدق بستالينغراد ، فعانت عروس الفولغا من هول الصراع الذي نشب حولها وفيها ، ما لم تعانه مدينة اخرى في هذه الحرب وفي كل حرب . ولكن هتلر ، الذي استطاع ان يحطم عمران ستالينغراد ، تعذر عليه ان يحطم شجاعتها ، فشاهدت كل حجرة من حجارتها مثلاً رائعاً من بطولة ابنائها ، وكان العدو لا يتقدم فيها ، اذ يتقدم ، الا بضعة اشبار خلال بضعة ايام ، يسفك في سبيلها دماء الالوف من جنوده . وهكذا ابتلعت ستالينغراد شيئاً فشيئاً خيرة القوى الهتلرية ، ولقد اقتربت خنادق الالمان من مركز القيادة السوفياتية فيها حتى لم يبق بينهما سوى ٢٠ متراً ، ولكن هذه الخنادق لم تكن عاصماً لهم من الموت ، بل كانت القبور التي دفنوا فيها .

لقد كان الفولغا عزيزاً على المدافعين عنه لان دماءهم قد

جرت فيه كما قالت فتاة اوكرانية كانت تحارب على ضفته ، ولانهم كانوا يعرفون ان دفاعهم عنه انما هو دفاع عن حرية وطنهم التي لا يستطيعون الحياة بدونها . ومن ثم كان شعارهم الثبات مهما كان الثمن ، وقد ادى ثباتهم الى انتصارهم ، اذ انكشفت المعارك الهائلة التي استمرت الى آخر كانون الثاني سنة ١٩٤٣ ، عن خطة حربية سوفياتية لا مثيل لها ، ادت الى تطويق القوى الفاشستية في تلك المنطقة كلها ، وابادتها ، واسرها جميعاً ، فكان انتصار ستالينغراد اعظم انتصار حربي عرفه التاريخ ، وتساءل الناس مرة اخرى عن سر هذه المعجزة الجديدة ، فاجاب جوكوف : « لقد قام كل واحد منا بواجبه ، لان كل واحد منا كان يعرف ان ليس مستقبل روسيا وحدها هو الذي يتقرر هنا بل مصير الانسانية المتحضرة بأسرها ، تلك هي المعجزة » !

ان ستالينغراد لعريقة في الجهاد ، فقد كانت حصن الثورة الاشتراكية الذي صد العدو وقهره ، وقام بمعجزات هائلة من البطولة ، رغم وطأة الجوع والخراب في السنوات الاولى من حياة الاتحاد السوفياتي ... وقد كانت تدعى يومذاك تزار تسين فحق لها ان تسمى بعدئذ باسم الرجل الفولاذي الذي كان على رأس نضالها العظيم ، وها هي ذي تستحق اسمها مرة اخرى ، بانقاذها للمرة الثانية وطنها الاشتراكي .

•

وبينما كان الطوق الحديدي يلتحم حول الجيش الالماني في

منطقة ستالينغراد، كان ثمة طوق يتفكك، هو الطوق الذي ضربه الالمان الهتلريون واذنابهم حول لينينغراد عاماً وبعض عام، بعد ان تحطمت هجماتهم امام مقاومتها الحديدية، دون ان ينالوا من صمودها العجيب. وقد صب العدو على جمال هذه المدينة وسعادتها وابلاً من قنابل مدافعه وطائراته، وألحّ عليها في حصارها الطويل، البرد والمرض والجوع، ولكنها لم تهن ولم تتخاذل امام العدو البغيض، بل ظلت صامدة، صابرة، مناضلة بكل ما لديها من قوة. وفي هذا الجو العاصف من الكفاح والحرمان، استمرت الحياة في سيرها المعتاد، ليس في المختبرات والمصانع فحسب، بل في المدرسة والمطبعة والمسرح ايضاً، فوُضعت في الاقبية والملاجيء، وعلى ضوء مصابيح البترول، مؤلفات، وطُبعت كتب، والقيت محاضرات، ومثلت اعظم الاوبرات والمسرحيات، وارتفعت الحان شوستاكوفيتش أعلى من مدافع الالمان وأفعل في احراز النصر.

لقد ساهم كل فرد من سكان لينينغراد، بوسائله وجهوده، في المقاومة الجبارة التي ابدتها هذه المدينة امام جحافل الهتلريين الالمان واتباعهم من كل قطر اوربي. هكذا انتصرت مدينة لينين على البرد والمرض والجوع، واستطاعت ان تحطم الطوق المضروب حولها، وان تهاجم خصومها فتهزمهم وتطاردهم. في هذه المدينة عاش لينين وكافح، فيها أُطلقت سنة ١٩١٧ اول رصاصة في سبيل النظام الاشتراكي، وفيها خطب لينين في انصاره القلائل يوم احدق جيش بودنيتش بلينينغراد سنة ١٩١٩،

قائلاً لهم ان الموقف حرج وجد خطير ، فلم ييأسوا بل ناضلوا وانتصروا ، كما ناضل ابناؤهم في سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ اعظم نضال وانتصروا أعظم انتصار . وكما استحقت هذه المدينة اسمها الخالد تقديراً لامجادها القديمة ، تستحقه اليوم – هي ايضاً – بما احرزت من انتصار جديد .

•

ومنذ انتصاري ستالينغراد ولينينغراد والجيش الاحمر يواصل تقدمه الى الامام . ولقد اجتاز منذ ذلك الوقت اكثر من ٢٤٠٠ كيلومتر في جبهة طولها آلاف الكيلومترات واباد ملايين الوحوش الهتلريين ، وحرر عدداً من الشعوب الرازحة تحت نيرهم ، وهو لا يزال يواصل زحفه المجيد لتحرير الشعب الالماني نفسه من النظام الفاشستي ، ودعائمه العسكرية والاقتصادية والفكرية ، وانقاذ العالم الى الابد من سياسته العدوانية الطاغية . وهكذا اثبت الجيش الاحمر في هذه الحرب العالمية الرهيبة التي تحمّل اثقل اعبائها ، واحرز المع انتصاراتها ، وحطم اكبر جيوشها ، انه اقوى جيش في العالم .. فما هي العناصر التي تؤلف قوته ، وما هي العوامل التي تؤدي الى انتصاره ؟

ان ثمة عوامل اساسية ثلاثة لا بد من تضافرها لاحراز النصر في الحرب الحديثة : اولها العتاد الحربي الآلي الذي لا يمكن ان يتألف بدونه جيش قوي ، وثانيها الفن العسكري الذي لا بد من توافره في القادة والجنود المحاربين لكي يحسنوا

استخدام جهازهم الحربي . ولكن القوة المادية مهما عظمت ومهما بلغت مهارة اصحابها ، لا تكفي وحدها لاحراز نصر حاسم بل يجب ان ترافقها قوة معنوية خارقة تجعل من كل جندي بطلاً يبذل دمه بسخاء في سبيل وطنه وعقيدته .

وهذه العناصر الثلاثة قد توافرت للجيش الاحمر على وجهها الاكمل . فالصناعة السوفياتية الجبارة زودت القوات السوفياتية بأقوى الاسلحة واحدثها ، وكانت القاعدة المادية والفنية لانتصارات الجيش الاحمر . وقد ثقف المحاربون السوفيات من ناحية ثانية فن الحرب ، وتمرسوا فيها ، وابدعوا اساليب وخططاً عسكرية خارقة ، وازدادوا قوة على قوة . فاذا كانت الجيوش الاستعمارية التي لا تتمتع بمعنويات قوية ولا تربطها بشعبها الا صلة السيد بالمسود ، تبدأ قوية جبارة ثم تنهار شيئاً فشيئاً حتى تهلك وتفنى ، فان الجيوش الشعبية تنمو اثناء نضالها ، وتقوى فيه ، ويتعاظم بأسها يوماً بعد آخر ، لانها تحارب في سبيل غاية تحريرية شريفة ، ولأن حربها هي حرب تقدمية ترافق تطور التاريخ وتعمل على دفعه الى امام ، لا حرباً استعمارية تعارض تقدم المدنية وتحاول ايقاف الانسانية في سيرها ورقيها .

والجيش الاحمر انما صفته الاساسية ومزيته الكبرى ، هو انه جيش الشعب الذي يستمد قوته من معنوياته القوية ، من المبادىء الانسانية التي يدين بها ويحارب من اجلها ، من الحريات والحقوق التي يتمتع بها ويدافع عنها ، من حبه لوطنه وشعبه واسرته ، من وحدة الدولة السوفياتية بشعبها وجيشها

وحكومتها . ومن ثم رأينا هذا الصمود العجيب الذي صمده في وجه الاخطار الكبرى التي احدقت به ، بل رأينا كل مواطن سوفياتي ، اينما كان مركزه ومهما كان عمله ، يشعر بانه جندي يجب ان ينذر قواه كلها لفكرة واحدة ، هي فكرة النصر والحرية.

ان الاستعداد للحرب يتطلب من دولة استعمارية كالدولة الالمانية ان تحوّل بلادها خلال سنوات طويلة الى ثكنات ومعسكرات اعتقال ، اما دولة كالدولة السوفياتية فان شعبها يرى من واجبه ومن دواعي فخره ان يدافع عنها . ان الجندي هناك آلة مسيرة يسخرها المستعمرون لاستثمار شعبهم والشعوب الاخرى ، وهو هنا حارس حقوق الشعب وحرياته ، هو عامل مثقف ، عظيم الشعور بواجبه والفهم لرسالته ، كمواطن يشاطر مواطنيه افراحهم واتراحهم ، حقوقهم وواجباتهم ، وكانسان شديد الاعتزاز بكرامته والحرص على حريته .

لقد بلغ الجيش الاحمر مستوى رفيعاً في التكنيك ، ولكن له ايضاً امتيازاً اكبر على الجيوش الاخرى ، فهناك تناقض في الجيش الهتلري مثلاً ، بين التكنيك الراقي وبين ضمير الانسان ! ولكن النظام السوفياتي قد ازال هذا التناقض بين الآلة والانسان في جميع مرافق الحياة . فالجندي الاحمر مقتنع ، عندما يستخدم آلته الحربية ، بانه انما يستخدمها من اجل قضية الحرية والسلام .. وثمة امتياز آخر : ان التكنيك الراقي يتطلب من صاحبه اوفى مقدار من البداهة والابتكار والاستقلال في الرأي ، والجيش الاحمر هو الجيش الوحيد الذي لا يناقض مصلحته

ولا يخالف مبدأه ان يتمتع كل جندي فيه باوفى نصيب من البداهة والابتكار والاستقلال في الرأي .

عندما يتحدث ستالين عن مزايا الجيش الاحمر ينوه اكثر ما ينوه بانه جيش الاتحاد بين العمال والفلاحين والمثقفين ، جيش الاخاء بين الشعوب السوفياتية ، جيش الدفاع عن الوطن الاشتراكي ، وبكلمة واحدة : انه جيش شعب يملك وطنه ويحكم بلاده ، شعب يتمتع بنظام سوفياتي . فلولا النظام السوفياتي لما كان الجيش الاحمر ، وبدون هذا النظام لا يمكن ان ينشأ جيش كالجيش الاحمر !

وهناك مزية اساسية اخرى من مزايا هذا الجيش لا يفتأ ستالين يرددها ويشيد بها ، هي انه جيش تقوم مبادئه على احترام جميع الشعوب الاخرى وتقدير حقها في الحرية والاستقلال ، ومن اجل هذا ، قبل اي شيء آخر ، وفوق اي اعتبار آخر ، نحيي نحن العرب الجيش الاحمر ، ونبتهج لكل انتصار يحرزه على قوى العبودية ، فقد كان خلال السنوات الاربع من نضاله ضد البربرية الهتلرية ، القوة التي اعادت الى الانسانية املها بالحرية ، ووطدت ثقة الشعوب بحقها في الحياة .

ولا ريب في ان شعور الجندي الاحمر بانه معقد امل الاحرار في العالم ، وحامل رسالة التآخي بين الشعوب ، يضاعف من قوته المعنوية ومن حماسته في القتال . ومن هنا قول المارشال ستالين : ان قوة الجيش الاحمر في انه لا يحمل ، ولا يمكن ان يحمل ، بغضاً للشعوب الاخرى ، وفي جملتها

الشعب الالماني نفسه ، وفي انه قد نشأ على ان ينظر نظرة المساواة الى سائر الشعوب والاجناس ، نشأ على احترام حقوق الشعوب الاخرى . ان نظرية البغض العرقي الالمانية وتطبيقها قد جعلت جميع الشعوب المشبعة بحب الحرية عدوة لالمانيا الفاشستية ، ولكن نظرية الاتحاد السوفياتي القائلة بالمساواة بين سائر الاجناس ، وتطبيق مبدأه القائم على احترام حقوق الشعوب الاخرى ، قد جعلا الشعوب المحبة للحرية صديقة للاتحاد السوفياتي . من هنا كانت قوة الجيش الاحمر وضعف الجيش الالماني .

٢٣ شباط سنة ١٩٤٥

الوطنية والديموقراطية

شهد العالم بين الحربين العالميتين الاولى والحاضرة ، ثلاثة انواع من الدول : الدولة الديموقراطية السوفياتية ، والدولة الديكتاتورية الفاشستية ، والدولة الديموقراطية البرجوازية الحائرة بين هذه وتلك . في الدولة الاولى كان ثمة وفاق بين الحكومة وشعبها ، وفي الدولة الثانية كان ثمة سيطرة تامة للحكومة على شعبها ، أما الصلة بين الحكومة والشعب في بقية الدول ، فكانت تختلف تبعاً لدرجة الديموقراطية فيها .

وكانت الدعايات المغرضة والمنظمة ، التي احيطت بها الدولة السوفياتية ، قد شوهت صورتها الحقيقية لدى بعض الناس ، كما ان هذه الدعايات نفسها اظهرت الدولة الفاشستية بمظهر خادع ، براق ، ضلل بعض الساذجين ، واغرى بالتشبه بها والسير على غرارها ، بعض الجماعات الرجعية الاستعمارية في الدول البرجوازية ، التي بدأت تخشى على بقائها من اتساع

حرية الرأي ، وتعاظم اليقظة الشعبية في اوطانها وفي جميع انحاء العالم ، وهل من اغراء اقوى لدى افراد هذه الجماعات ، من تأليه الدولة ما داموا هم آلهتها والمتصرفون باقدارها !

تقول الدولة الأله ، او الدولة الفاشستية ، لرعاياها : ليس لكم حق اختيار اهدافكم ، فالدولة هي التي تعينها لكم . وليس لكم حق تطالبون به بل طاعة تخضعون لها . وليس لكم وجود مستقل ، فما انتم الا مخلوقات تتساهم بناء الدولة وتحقيق اغراضها . لا تكلفوا انفسكم عناء التفكير فان الدولة تفكر من اجلكم . واذا عرفتم كيف تكونون عبيداً مسيرين فانكم ستكونون اسياد العالم . فلا تستسلموا للشكوى بل دعوا البنادق تغني لكم...

بذلك يُقضى على حرية الرأي وحرية النضال الاجتماعي ، وتنصرف الشعوب عن الكفاح من اجل حقوقها ، وانتزاع هذه الحقوق من ايدي الجماعات التي تستثمرها ، الى اغتصاب حقوق الشعوب الاخرى وتسليمها لقمة سائغة لتلك الجماعات المستثمرة ، تلك الجماعات الرجعية الاستعمارية في الدولة ، من الرؤساء المسيطرين ، الى تجار الاسلحة ، الى اصحاب المصانع والشركات الاحتكارية الذين يبحثون دائماً عن اسواق جديدة .

ولقد طما سيل المذاهب الديكتاتورية في اوربا قبل الحرب الحاضرة ، وراج زي التشبه بالديكتاتورين ، حتى خيل لبعض الديموقراطيين انهم يُضحون بانفسهم من اجل مذهب متلاشٍ...

وكانت الديموقراطية تتلاشى في اوربا حقاً ، ويضعف

شأنها في الحياة الاجتماعية والسياسية . كان هنالك ديموقراطية كاذبة مشوهة ، بتراء . وبدلا من ان تنقذ اوربا نفسها بتوسيع آفاق الديموقراطية فيها ، صارت تتخلى عنها شيئاً فشيئاً . فكانت سياسة التخاذل أمام اعمال هتلر وموسوليني العدائية في رينانيا والنمسا والحبشة والبانيا ، وسياسة الحياد الكاذب المجرم في الحرب الاسبانية ، تخفي تحت ستارها الخادع ، ميلاً قوياً في الدول الديموقراطية البرجوازية الى التفاهم مع الفاشستية وتأييدها والتشبه بها ، وقد ظهر هذا الميل بجلاء في مؤتمر مونيخ الذي كان طعنة دامية وجهتها الى الديموقراطية ايدي ابنائها . وكان يمكن ان يُفسر مؤتمر مونيخ ، كما زعموا ، كهدنة تستفيد منها الدول الديموقراطية لحشد قواها وتوحيد صفوفها ، لو انها عمدت الى ذلك حقاً . لكنْ كلما كان الخطر الفاشستي يتعاظم ، كانت تتعاظم معه مقاومة المسؤولين في الدول البرجوازية للحركات الديموقراطية الشعبية في بلادهم ، وتجاهل الدعوة التي كان زعماء هذه الحركات لا يفتأون يوجهونها في سبيل توحيد القوى ومجابهة الخطر بصفوف قوية ...

فلما وقعت الحرب ، زحفت الجحافل الالمانية المصفحة على اوربا ، فحاربت اوربا الحديد الواغل باجساد ابنائها ... وكان الديموقراطيون الصادقون يعتقدون ، رغم ذلك ، بان الامل لم يتبدد ، وبان الروح الديموقراطية كفيلة بان تلهب حماسة الشعوب للدفاع عنها . لكن حكومات هذه الشعوب كانت لا تزال تؤكد بان الحرب بعيدة عن اراضيها ، ولم يتورع

بعضها عن تسريح قسم من الجنود الذين عبأتهم ، او التفكير بارسال فريق منهم لمساعدة فنلندا ، بينما كانت الجيوش الالمانية على ابواب بلادها !

ولما شعرت هذه الحكومات بوطأة الحرب وبتوغل الالمان في اراضيها ، بادرت الى القاء القبض على عشرات الالوف من عمالها وجنودها الديموقراطيين ، لانها لم تكن تخشى اندحار اوطانها بقدر ما كانت تخشى انتصار الحركات الشعبية فيها .. بل لقد كان هتلر يمثل لدى اكثر الطبقات الحاكمة في اوربا ، الامل الوحيد بانقاذ مصالحها التي هي اغلى لديها ، واعز عليها ، من مصالح اوطانها . .

لما دنت الجيوش الالمانية من العاصمة الفرنسية — مثلاً — كان الباريسيون يتذكرون ثبات مدريد بوجه الطغاة ثلاث سنوات كاملة ، ويتذاكرون دروس فالمي وحصار باريس سنة ١٨٧١ ، ويستعدون للدفاع عن عاصمة الثورة الكبرى . ولكنهم ما لبثوا ان تلقوا امراً بمغادرة باريس وبالاستسلام للجيوش الالمانية الزاحفة عليها !

وحينئذ ظهر على المسرح اناس كانوا الى شهور خلت يتصدرون الاوساط السياسية ، لالقاء دروس متطرفة في القومية والوطنية ، فاذا بهم الآن يدعون الى عدم المقاومة ، والى الاستسلام ، والى التعاون ! وبعد ان كان كويسلنغ رمزاً للخيانة اصبح في بعض الاوساط بطلاً وطنياً . ولم يكن ظهور امثال بيتان ولافال وكويسلنغ اتفاقاً محضاً ... فلما

دخلت الجيوش الالمانية باريس ، صدرت فيها صباح اليوم التالي جريدة فرنسية باسم « النصر » ! وعادت الى الصدور جريدة دوريو « الحياة القومية » لتلقي دروسها « الوطنية » من جديد وتطالب بمطاردة الشيوعيين « اعداء وطنهم » ، فأوقف الالمان عدداً كبيراً من زعماء الحركة الديموقراطية !

هل كان ذلك نهاية الديموقراطية ؟

كلا ، بل كان بداية حرب الشعوب على الهتلرية وانصارها وعملائها ، في سبيل ديموقراطية صحيحة . فقد ادركت الشعوب بفطرتها السليمة ، بعد زوال الدهشة التي استولت عليها ، ان انهيارها لا يمكن ان يكون نتيجة عوامل عسكرية فقط ، بل كان على الاكثر نتيجة لفقدان التعاون بين الحكومات والشعوب تعاوناً صادقاً وثيقاً ، ونتيجة تشجيع هذه الحكومات للعناصر الفاشستية التي كانت تحارب اوطانها باسم الوطنية نفسها: نتيجة خيانة الطبقات الحاكمة لمصالح اوطانها في سبيل مصالح الشركات الاحتكارية التي تمثلها وتدافع عنها . ادركت الشعوب ان ما جرّها الى الكارثة هو قلة الديموقراطية لا كثرتها ، وهو ضعف الديموقراطية لا قوتها ، وهو خيانة الديموقراطية لا الاخلاص لها ، فنهضت تناضل اعداءها في الخارج وفي الداخل ، ليس من اجل الديموقراطية القديمة فقط ، بل من اجل ديموقراطية اوسع واقوى وافضل .

وسرعان ما وقف الى جانب الشعوب في نضالها المجيد الشريف ، جميع الوطنيين المخلصين ، وحتى المترددين منهم ،

الذين كانوا يشكّون قبل الحرب في المبادىء الديموقراطية ، ويبدون حذرهم من جماهير الشعب ، والذين اعجبوا اخيراً بصلابة الشعب ، وسلّموا بحكمته العميقة التي تجمع بين الوطنية الصادقة والديموقراطية الصحيحة ، فأصبحت الديموقراطية والوطنية ، لدى ملايين الناس الذين يكافحون العبودية النازية في شرق اوربا وغربها ، كلمتين مترادفتين لمعنى واحد .

لقد كانت الحرب الحاضرة محكاً للانظمة الاجتماعية المختلفة ، خلال الصراع العنيف الذي اشتبكت فيه الفاشستية والديموقراطية ، تفوق هذه على تلك تفوقاً لا يُمارى فيه ولا يحتاج الى برهان ، بل اقام مئات الدلائل على ان العالم قد بلغ حداً من الوعي والتطور لا يستطيع الحياة فيه ، ولا يستطيع مواصلة الرقي ، الا في ظل ديموقراطية تتسع باستمرار وتسير دائماً من حسن الى احسن .

ولقد كانت حجة اعداء الديموقراطية في مكافحتها قبل الحرب ، ان اتساعها وتطورها في بلد من البلدان ، قد يؤثر في سير الحركة الوطنية فيه ويضعف مقاومته للعدو الاجنبي . ولكن تجربة ، بل تجارب هذه الحرب ، قد اثبتت بطلان هذا الزعم ، وأرتنا على النقيض ، ان جنود التحرر الوطني انما هم جنود الديموقراطية الصادقون ، وان الدفاع عن الوطن لم يتم بنجاح الا حيث كانت الديموقراطية سائدة مزدهرة ، وحيث كانت الحكومة وشعبها على وفاق تام لا تنافر بينهما ولا تناقض بين مصالحهما .

وهذه معجزات الجيش الاحمر ، تثبت اثبات اليقين ، ان الشعوب السوفياتية قد ارتفعت الى قمة الوطنية وذروة البطولة ، لانها كانت تدافع عن اكثر الديموقراطيات اتساعاً وتقدماً في العالم . بينما رأينا الدول الاوربية تتداعى امام الفاتح وتخضع لنيره ، لانها قاومت الحركة الديموقراطية في اوطانها اكثر مما قاومت عدوان الاجنبي عليها ، ولانها سمحت للعناصر الفاشستية بحرية العمل فألفت في بلادها طوابير خامسة تخدم العدو تحت ستار الوطنية ومكافحة الشيوعية ... وما ان سيطر النازي على هذه البلاد الاوربية ، حتى رأينا حركة المقاومة الوطنية فيها تنبثق من قلب الحركة الديموقراطية نفسها ومنها وحدها . فابطال الديموقراطية في اوربا ، امثال بيري في فرنسا ، واركولي في ايطاليا ، وتيتو في يوغوسلافيا ، وديمتروف في بلغاريا كانوا في هذه الحرب ابطال الوطنية المناضلين والمستشهدين في سبيل بلادهم وشعوبهم .

وهكذا تلاقت الوطنية والديموقراطية ، بل هكذا تبين أن مفهوم الوطنية الصحيح لا يختلف عن مفهوم الديموقراطية الصحيح ، ولا يمكن ان يتعارضا في شكل من الاشكال . فليس بديموقراطي صادق من ليس وطنياً صادقاً ، وليس بوطني صحيح رجل يحارب الديموقراطية في بلاده ، ينكر حق مواطنيه في الحرية الفكرية والرخاء الاقتصادي ، ويحاول بناء كيان وطنه على اسس فاشستية صريحة او مستورة ، فضلا عن ان هذه الردة الى الاساليب الارهابية لم تبق ميسورة ولا مستطاعة بعد

ان تحطمت في العالم أقوى اساليب الارهاب . وقد كان لنا في الحرب الحاضرة الف درس وعبرة على أن الخوف من الحرية هو الذي يقود الى العبودية ، وأن موجة الحرية لا بد من ان تزيل من طريقها ، في النهاية ، كل من يحاول ايقافها واقامة السدود أمام تيارها .

لقد علمتنا الحرب ، كما علمت الدنيا بأسرها ، أن الحريات الديموقراطية هي الاسس التي يقوم عليها النضال الوطني الشريف المجدي ، وان الشعوب هي اليد التي تحرك هذا النضال وتعمل فيه ، والروح التي تمده بالشجاعة والعزيمة والاقدام . فكل اتجاه نحو تجاهل هذه الحقيقة الكبرى : نحو تجاهل القوى الشعبية ، واهمال حقوقها ، وانكار قيمتها في النضال الوطني ، وكل ميل الى الغاء الحريات الديموقراطية أو منحها لعناصر فاشستية تتسلح بها في محاربة الديموقراطية نفسها .. هو اتجاه رجعي مقضي عليه بالاخفاق ، فضلاً عن انه اتجاه خطر يسيء الى المصلحة الوطنية العامة ، يصدّع كيان الوطن ويهدد استقلاله ، ويعرّضه الى العدوان الاجنبي ويُضعف مقاومته اياه ، لانه يفسح مجالاً واسعاً لان تعبث بأمنه ودفاعه ووحدة صفوفه ، عناصر فاشستية النزعة لا ترى حرجاً في خيانة وطنها لتنفيذ أغراضها الشخصية ومآربها الاجرامية .

ذلك هو الدرس الذي تعلمته الشعوب من هذه الحرب ، في غمرة النكبات والالام ، وضحت في سبيله الملايين العديدة من ابنائها ، وثقفت بروحه الثورية ، قوافل الابطال الذين

جندتهم لمعركة الحرية ...

وان موجة هذه الروح الجديدة لتتدفق في الدنيا وتصعد يوماً بعد آخر فتتعاظم قوتها ، وتفرض ارادتها ، ولم يبق بعيداً ذلك اليوم الذي تبني فيه عالمها الجديد ، عالم الوطنية الصحيحة والديموقراطية الصحيحة ، عالم الحرية والاخاء والمساواة بين الناس ، افراداً وشعوباً .

ان الروح الوطنية قد قوّت أواصر الاخاء بين جميع الشعوب التي وجدت نفسها مهددة بالفناء ، أمام المحرقة العالمية التي عصفت بالشعوب جميعاً ، ووحّدتها في النكبة الشاملة وفي الانتصار عليها . وهذا الاخاء العالمي الجديد ، قوّى بدوره شعور كل شعب بحق الشعوب الاخرى في الاستقلال والسيادة الوطنية ، وايمانه بأن الشعب الحر لا يستعبد شعباً آخر !

واذا كانت هزائم هذه الحرب ومخازيها مرتبطة كل الارتباط بخيانة الطبقات الحاكمة ، فأن انتصاراتها وأمجادها لوثيقة الصلة بوطنية الشعوب وشرفها وتضحيتها ، فيجب ان تحمل هذه الانتصارات والامجاد للشعوب ، الحرية الديموقراطية التي تنشدها ، والحرية الوطنية التي تريدها لنفسها ولجميع شعوب العالم .

لقد ادركت الشعوب ، ان تقاليدها القومية وخصائصها المحلية ، مهما تنوعت واختلفت ، فان مصالحها الوطنية والاقتصادية لا يمكن ان تختلف ، ولا ينبغي لها ان تختلف . وان مصالح الشركات الاحتكارية الاستعمارية والحكومات التي تمثلها هي وحدها التي تختلف وتتصادم ، وهي وحدها التي تخلق الاحقاد

والضغائن حيث لا حقد ولا ضغينة ، وهي وحدها التي تسوق الناس بسوطها وتقذف بملايين الابرياء الى الحروب والمجازر ، وهي وحدها التي تبيع شعوبها بيع السلع وتضحي بها على مذبح منفعتها ، وهي وحدها التي أوجدت الفاشستية والنازية بالأمس وتستعد منذ اليوم لأيجاد فاشستية ونازية من نمط آخر ... فالشعوب تريد ان يكون عالمها الجديد ، هذا العالم الذي ترويه بدمائها وتبنيه بأيديها ، خالياً من الشركات الاحتكارية الاستعمارية ، لكي تستطيع الحياة في ظل السلام والرخاء والحرية .

وانه لمن الواجب ، ومن الممكن ، ان تتحقق هذه الارادة الثورية ..

لانها ارادة مئات الملايين من المثقفين والكادحين في مشرق الارض ومغربها ..

ولأنها الارادة التي تمثل روح الحياة وتطور التاريخ وتقدم الانسانية ..

ولأن الشعوب اصبحت قادرة على تحقيقها ، بوعيها واتحادها وتضحيتها .

٤ آذار سنة ١٩٦٥

[redacted]
حرب الشعوب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038364

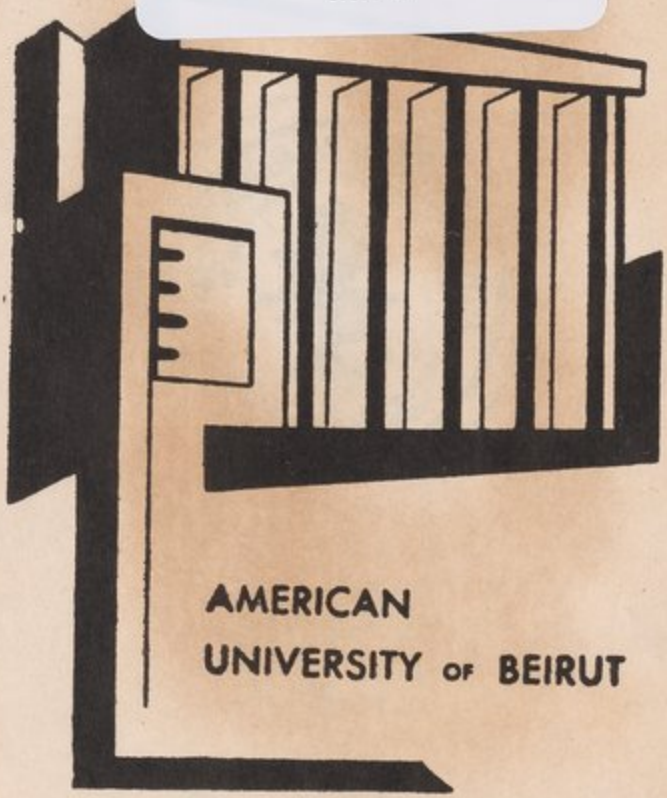

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.74
Q614hA